جامعـة
المنصــورة
كليـــة الآداب
–

المنهج القرآني في تغيير المنكر
" سورة الكهف نموذجاً "

إعــداد
دكتور / همت السيد الشربيني الباز
دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن
بجامعة الأزهر الشريف

مجـــلة كلـــية الآداب – جامعـــة المنصـــورة
العدد الرابع و الخمسون – يناير ٢٠١٤

المنهج القرآني في تغيير المنكر
" سورة الكهف نموذجًا "

د/همت السيد الشربيني الباز

مقدمـــة

إذا كان تبليغ الدعوة الإسلامية واجبًا على كل مسلم، فإن الله سبحانه وتعالى – كما أمر بالمعروف – حذّر من السكوت على المنكر، لأن في السكوت على المنكر دمارًا للأمة بأكملها –صالحها وطالحها – فتغيير المنكر – كتبليغ الدعوة – ضرورة وواجب شرعًا، انطلاقًا من القاعدة الأصولية التي تقول: ((ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب))، لأنه ضرورة حياة، به يتحقق للأمة وجودها الآمن قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال/ ٢٥].

وقد فسر ابن عباس[١] رضي الله عنهما هذه الآية الكريمة بقوله: «أمر الله تعالى المؤمنين ألا يقروا المنكر بين ظهرانيهم، فيعمهم الله بالعذاب».[٢]

والقرآن العظيم يوجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر – فى كثيرٍ من آياته :–

– فقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران/ ١٠٤].

---

(١) عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، ابن عم رسول الله ﷺ الإمام البحر، عالم العصر، أبو العباس الهاشمى، أبو الخلفاء، مات رسول الله ﷺ ولعبد الله ثلاث عشرة سنة، وقد دعا له النبى ﷺ أن يفقهه الله فى الدين ويعلمه التأويل، توفى ابن عباس بالطائف سنة ثمانٍ وستين، فصلى عليه ابن الحنفية، وقال: مات اليوم ربانى هذه الأمة رضى الله عنه، [ينظر: تذكرة الحفاظ للإمام الذهبى ١/ ٤٠ ، ٤١، ط دار الفكر العربى].

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٩٩، ط عيسى الحلبى.

ففي هذه الآية بيان الإيجاب، فإن قوله تعالى ﴿وَلْتَكُنْ﴾ أمر، وظاهر الأمر الإيجاب.

وفيها بيان أن الفلاح منوطٌ به إذْ حصر ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وفيها بيان أنه فرض كفاية لا فرض عين، وإنه إذا قام به أمة – أى جماعة – سقط الفرض عن الآخرين، إذ لم يقل الله: كونوا كلكم آمرين بالمعروف، بل قال سبحانه: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ فإذًا مهما قام به واحد أو جماعة سقط الحرج عن الآخرين، واختص الفلاح بالقائمين به المباشرين.

وإن تقاعد عنه الخلق أجمعون عمَّ الحرج كافة القادرين عليه لا محالة.(١)

– وقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران/ ١١٠].

وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إذ بين أنهم كانوا به خير أمةٍ أخرجت للناس.

– وقوله تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء التوبة/ ١١٤].

والإصلاح: نهى عن البغي وإعادة إلى الطاعة.

– وقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة/ ٧١]، فقرن ذلك بالصلاة والزكاة في نعت الصالحين والمؤمنين.

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/ ٣٠٦، ٣٠٧، لأبى حامد الغزالى، ط مكتبة دار التراث.

– وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج/ ٤١].

إلى غير ذلك من نصوص القرآن الكريم فى هذا المجال...

هذا، وقد جاءت السنة النبوية الشريفة، وفيها عدة أحاديث تحذر من سوء السكوت على المنكر والإعراض عن تغييره، أو الانشغال عن تغييره..

– عن عبد الله بن مسعود[١] رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ما من نبى بعثه الله فى أمةٍ قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلُف من بعدهم خلُوف يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يُؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل﴾[٢].

– وعن أبى سعيد الخدرى[٣] رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان﴾[٤]

---

(١) الإمام الربانى رضى الله عنه أبو عبد الرحمن بن أم عبد الهذلى صاحب رسول الله ﷺ وخادمه وأحد السابقين الأولين، ومن كبار البدريين، ومن نبلاء الفقهاء والمقرئين، كان ممن يتحرى فى الآراء، يمكن أن يجمع سيرة ابن مسعود فى نصف مجلد/ فلقد كان من سادة الصحابة، وأوعية العلم، وأئمة الهدى، اتفق موته بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين، وله نحو من ستين سنة، [ينظر: تذكرة الحفاظ ١/ ١٣ – ١٦].

(٢) صحيح الإمام مسلم، كتاب الإيمان، باب كون النهى عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجبان، حديث رقم ٨٠.

(٣) أبو سعيد الخدرى هو سعد بن مالك بن سنان الأنصارى الخزرجى، كان من علماء الصحابة ومن شهد بيعة الشجرة، روى حديثًا كثيرًا، وأفتى مدة، وأبوه من شهداء أحد، عاش أبو سعيد ستًا وثمانين سنة، وحديثه كثير فى الصحيحين وغيرهما [ينظر: تذكرة الحفاظ ١/ ٤٤].

(٤) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم ٧٨، وسنن أبى داوود، رقم ٤٣٤٠.

– وعن أم المؤمنين عائشة[١] رضى الله عنها قالت: «دخلت على النبى صلى الله عليه وسلم فعرفت فى وجهه أنه قد حضر شىء، فتوضأ وما كلَّم أحدًا، فلصقت فى الحجرة أسمع ما يقول، فقعد على المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وقال: ﴿أيها الناس، إن الله يقول لكم مروا بالمعروف والنهوا عن المنكر، قبل أن تدعونى فلا أجيب، وتسألونى فلا أعطيكم، وتستنصرونى فلا أنصركم﴾»[٢].

– وقال جرير رضى الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ما من رجلٍ يكون فى قومٍ فيعمل فيهم بالمعاصى، يقدرون على أن يغيروا عليه فلا يغيروا، إلا أصابهم الله بعذابٍ قبل أن يموتوا﴾[٣].

– وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (*) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (*) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ

---

(١) عائشة – أم المؤمنين – رضى الله عنها أم عبد الله حبيبة رسول الله ﷺ وبنت الخليفة أبى بكر الصديق رضى الله عنه من أكبر فقهاء الصحابة.
بنى بها رسول الله ﷺ فى شوال بعد وقعة بدر، فأقامت فى صحبته ثمانية أعوام وخمسة أشهر، وكانت أحب نسائه إليه، ونزلت الآيات فى تبرئتها مما رماها به أهل الإفك، وعاشت خمسًا وستين سنة، روى عنها جماعة من الصحابة والتابعين، توفيت فى سنة سبعٍ وخمسين، وقد أفردت أخبارها فى مصنف، رضى الله عنها.
[ينظر: تذكرة الحفاظ، ١/ ٢٧-٢٩].

(٢) أخرجه ابن حبان فى موارد الظمآن ٤٥٥/ ٤٥٦، رقم ١٨٤١.

(٣) أخرجه أبو داوود فى سننه، كتاب الملاحم، باب فى الأمر والنهى ٤/ ١٢٢ – ١٢٣، رقم ٤٣٣٩.

يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (*) وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة/ ٧٨ – ٨١]، ثم قال: كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يدى الظالم، ولتأطرنه على الحق أطرًا، ولتقصرنه على الحق قصرًا﴾.(١)

فهذه الأحاديث الشريفة وغيرها تدل دلالة واضحة على أن إصلاح الفرد المسلم فى نفسه لا يقيه من الهلاك والعذاب ما لم يغير المنكر الواقع ممن حوله، ولن تستقيم حياة أمة إلا بالقيام بتغيير المنكر والأخذ على يد الظالم، فالتغيير ضرورة حياة لتحقيق الوجود المتمكن للأمة المسلمة، لتأخذ بأسباب الحياة كلها للوصول إلى ما فيه خير الإنسانية والوجود، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله.

وبعد؛

فقد بين الرسول الكريم ﷺ وسائل تغيير المنكر وضوابطه ليقيم على الأمة المحجة البيضاء، ولا يُبقى لها عذرًا فى التقاعس عن القيام بهذه الفريضة.

فالحديث الوارد عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن الرسول ﷺ: ﴿من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان﴾.

ومن ثمّ فالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قد أوضحا السبل التى يسلكها المرء إلى تغيير المنكر، ثم بيّنا آلات التغيير وسبله مرتبة ترتيبًا أوليًا، فلا يتخطى المرء عن سبيل إلى الذى بعده، إلا إذا أيقن أنه ليس فى قدرته القيام به، وهذا

---

(١) أخرجه أبو داوود فى سننه، كتاب الملاحم، باب فى الأمر والنهى ٤/ ١٢١ – ١٢٢، رقم ٤٣٣٦.

الموضـوع لـه أهميتـه العظيمـة فـى القـرآن العظـيم، فخصصـته بالبحـث والتفصـيل، وسيكون الحديث فيه على النحو التالى فى المباحث الآتية:

المبحث الأول: تعريف المنكر الواجب تغييره، وشروطه.

المبحث الثانى: بيان المغيّر للمنكر، وشروطه.

المبحث الثالث: الواقع فى المنكر، وشروطه.

المبحث الرابع: وسائل تغيير المنكر، (سورة الكهف نموذجًا).

هذا، وبالله التوفيق.

المبحث الأول: تعريف المنكر الواجب تغييره.

المنكر الواجب تغييره يلزم تعريفه والوقوف عليه، وبيان الشروط الواجب توافرها فيه، لأنه ليس كل منكرٍ يجب تغييره، فهناك معاصٍ منها صغائر ومنها كبائر، فالصغائر ينهى عنها بالوعظ والنصح، وهذا المبحث تحته مطلبان:

المطلب الأول: بيان معنى المنكر، تعريف المنكر.

يقول الراغب الأصفهانى: المعروف: اسم لكل فعل يعرف بالعقل أو بالشرع حسنه، والمنكر: ما يُنكر بهما، ولذا قيل للاقتصاد فى الجود: معروف، لمّا كان ذلك مستحسنًا فى العقول وبالشرع نحو ﴿وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾، ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ﴾، ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أى بالاقتصاد والإحسان.

والمنكر: كل فعلٍ تحكم العقول الصحيحة بقبحه، أو تتوقف فى استقباحه واستحسانه العقول، فتحكم بقبحه الشريعة.(١)

ويقول ابن منظور: ...والمنكر من الأمر: خلاف المعروف، وقد تكرر فى الحديث الإنكار والمنكر، وهو ضد المعروف، وكل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه فهو منكر.(٢)

والمعروف: ضد المنكر، والمعروف: كالعرف، قال الزجاج: المعروف: ما يستحسن من الأفعال، وقد تكرر ذكر المعروف فى الحديث، وهو اسم جامع لكل ما

---

(١) يُنظر: المفردات فى غريب القرآن، لأبى القاسم الحسن بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلانى، ط الحلبى، مادتى عرف و نكر.

(٢) لسان العرب، لابن منظور، مادتى نكر و عرف.

ومن أقوال المفسرين فى معنى المنكر:

قال أبو العالية: المنكر: عبادة الأوثان، وقال الفخر الرازى: رأس المنكر: الكفر، وقال الجصاص: المنكر: هو ما نهى الله عنه، وقال الآلوسى: المنكر: المعاصى التى أنكرها الشرع.

عُرف من طاعة الله والتقرب إليه والإحسان إلى الناس، وكل ما ندب إليه الشرع، والمعروف: النصفة وحسن الصحبة مع الأهل وغيرهم من الناس.

والمنكر: ضد ذلك جميعه.

وقد ذكرت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المنكرات وصورها، فأعظم المنكرات: الشرك بالله تعالى، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، والزنا، وشهادة الزور، وعقوق الوالدين، وأكل مال اليتامى ظلمًا، وقطيعة الرحم، والكذب، والخيانة... وما يدخل فى ذلك من تطفيف الكيل والميزان، والغش فى الصناعات، والبياعات والديانات.

فالغش يدخل فى البيوع بكتمان العيوب، وتدليس السلع، ويدخل فى الصناعات، مثل غش النقود، والجواهر والعطور... والغش فى الديانات مثل البدع المخالفة للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة من الأقوال والأفعال، ورواية الأحاديث الموضوعة، والعبادات المبتدعة غير المشروعة... وغير ذلك مما لا أصل له فى الدين الخاتم.

هذا، ونجد الإمام الماوردى – رحمه الله تعالى – قد حصر المنكرات فى ثلاثة أقسام، فقال:

وأما النهى عن المنكرات فيقسم ثلاثة أقسام؛ أحدها: ما كان من حقوق الله، والثانى: ما كان من حقوق الآدميين، والثالث: ما كان مشتركًا بين الحقين.

= فأما النهى عنها فى حقوق الله تعالى، وهى ثلاثة أقسام؛ فأحدها: ما يتعلق بالعبادات، والثانى: ما يتعلق بالمحظورات، والثالث: ما يتعلق بالمعاملات.

فأما المتعلق بالعبادات: فكالقاصد مخالفة هيئتها المشروعة، والمتعمد تغيير أوصافها المسنونة.

وأما المتعلق بالمحظورات: فكل ما حظره الشرع، كشرب الخمر والزنا وغيره.

وأما المتعلق بالمعاملات: فهذا كالبيوع الفاسدة، وما منع الشرع منه مع تراضى المتعاقدين به، إذا كان متفقًا على خطره.

= وأما ما ينكر من حقوق الآدميين المحضة؛ فمثل أن يعتدى رجل فى حق جاره، أو فى حريم لداره، أو فى وضع جذرٍ على جداره، وملاحظة أهل الصنائع فى أمانتهم أو خيانتهم، وجودة صناعتهم أو ردائتها، وغير ذلك من الأمور.

= وأما ما ينكر من الحقوق المشتركة بين حقوق الله تعالى وحقوق الآدميين؛ فكالمنع من الإشراف على منازل الناس، وملاحظة أهل الذمة بعدم المجاهرة بقولهم فى (العُزير و المسيح) وملاحظة القضاة فيما عليهم بين الخصوم.(١)

بعد هذا العرض العام لأقسام المنكرات، والتى لا يتم النهى عنها أو تغييرها بصورةٍ واحدة، وذلك لتعدد درجات الإنكار وصوره على حسب درجة الفعل، وحالة الفاعل وظروفه ومكانه، نرى أن المنكر الذى يجب على الأمة تغييره، هو ما خالف كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ مخالفة قاطعة، تلك هى حقيقة المنكر الذى يجب تغييره.

المطلب الثانى: شروط المنكر الذى يجب تغييره.

ذكر العلماء شروطًا للمنكر الواجب تغييره، أهمها ما يلى:

١) كونه منكرًا، ونعنى به أن يكون محذور الوقوع فى الشرع، وعَدَلنا عن لفظ المعصية إلى هذا، لأن المنكر أعمّ من المعصية.

إذ من رأى صبيًا أو مجنونًا يسرب الخمر فعليه أن يريق خمره ويمنعه، وكذا إذا رأى مجنونًا يزنى بمجنونة أو بهيمة فعليه أن يمنعه منه.. وهذا لا يسمى معصية فى حق المجنون، وكذلك الخلوة بالأجنبية، وإتباع النظر للنسوة الأجنبيات، كل ذلك يسمى من الصغائر، ويجب النهى عنها.

٢) أن يكون موجودًا فى الحال، لأن الحديث يقول: ﴿من رأى...﴾، فهذا يدل

---

(١) يُنظر: الأحكام السلطانية، لأبى الحسن الماوردى، ٢٥٤- ٢٦٤، ط دار ابن خلدون.

على العلم بوقوع المنكر علمًا محققًا.

٣) أن يكون المنكر ظاهرًا للمحتسب بغير تجسس. فكل من ستر معصية فى داره وأغلق بابه لا يجوز أن يُتجسس عليه، وقد نهى الله تعالى عنه إلا أن تظهر أمارات المعصية، كأصوات المزامير والأوتار والسكارى.

٤) أن يكون منكرًا بغير اجتهاد، فكل ما هو فى محل الاجتهاد فلا حسبة.

فليس للحنفى أن ينكر على الشافعى أكل الضب والضبع ومتروك التسمية، ولا للشافعى أن ينكر على الحنفى شرب النبيذ الذى لا يسكر، وتناوله ميراث ذوى الأرحام.[١]

---

(١) يُنظر: إحياء علوم الدين، ٢/ ٣٢٤ – ٣٢٥.

المبحث الثانى: بيان المغير للمنكر وشروطه.

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطب الأعظم فى الدين، وهو المهم الذى ابتعث الله تعالى له النبيين أجمعين، ولو طُوى بساطه وأُهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلّت الديانة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، وخربت البلاد، وهلك العباد.

ومن ثم وجب القيام بتغيير المنكرات، وهنا قد اشترط الفقهاء لمن يقوم بهذا العمل أن يتميز بصفاتٍ تؤهله للقيام بتلك المهمة، حتى يتسنى له مواصلة هذا الجهاد، ونوجز هذه الشروط فيما يلى:

١- الإيمان بالله تعالى: لأن هذا نصرة للدين، فكيف يكون من أهله من هو جاحدٌ لأصل الدين وعدوٌ له.

٢- التكليف: وأساس التكليف العقل والبلوغ، لأن غير المكلف لا يجب عليه أمر، وهذا شرط فى الوجوب، أما إمكان الفعل وجوازه فلا يستدعى إلا العقل، حتى إن الصبى المراهق للبلوغ المميز – وإن لك يكن مكلفًا – فله إنكار المنكر، وله أن يريق الخمر ويكسر الملاهى.

فمن لم يبلغ الحُلُم لا يجب عليه التغيير لمنكرٍ رآه، فإن كان مميزًا عارفًا بالمنكر قادرًا على تغييره صح له أن يغيره، ولا يجوز منعه من ذلك، كما لا يجوز حمله على التغيير، إلا على سبيل تدريبه على الطاعات من قبل وجوبها، على أن يكون ذلك تحت أمر وليه.

٣- العدالة: فقد اعتبرها قومٌ وقالوا: ليس للفاسق أن يحتسب، فلا يجوز أن ينهى عن أمر وهو مقيم عليه فاعلٌ له، وربما استدلوا على من يأمر بالمعروف ولا يفعله بقول الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة/ ٤٤] وبما روى فى الحديث، مثل قول النبى ﷺ: ﴿يُجاب بالرجل

يوم القيامة فيُلقى فى النار فتندلق أقتاب[١] بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه﴾[٢]، وغير ذلك من الأحاديث والآيات.

وربما استدلوا من طريق القياس؛ بأن هداية الغير فرع للاهتداء، وكذلك تقويم الغير فرع للاستقامة، والإصلاح زكاة عن نصاب الصلاح، فمن ليس بصالح فى نفسه فكيف يصلح غيره؟ ومتى يستقيم الظل والعود أعوج؟

وكل ما ذكروه خيالات، وإنما الحق: أن للفاسق أن يحتسب، وبرهانه أن نقول:

هل يُشترط فى الاحتساب أن يكون متعاطيه معصومًا عن المعاصى كلها؟ فإن شرط ذلك فهو خرق للإجماع، ثم حسم لباب الاحتساب، إذ لا عصمة للصحابة رضى الله عنهم فضلا عمن دونهم.

ولهذا قال سعيد بن جبير[٣] رحمه الله تعالى: «إن لم يأمر بالمعروف ولم ينه عن المنكر إلا من لا يكون فيه شىء، لم يأمر أحد بشىء»، فأعجب مالكًا[١] ذلك من سعيد بن جبير.

---

(١) قال أبو عبيد: الأقتاب: الأمعاء، وقال الأصمعى: واحدها قتب، وقال ابن عُيينة: هى ما استدار فى البطن، وهى الحوايا والأمعاء، واحدها: قتب.
والاندلاق: خروج الشىء من مكانه. [هامش صحيح مسلم ٤/ ٢٢٩١].

(٢) صحيح مسلم، كتاب الزهد، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله، رقم ٥١، وبنحوه ذكر البخارى، كتاب الفتن، باب ١٧، الفتنة التى تموج كموج البحر، رقم ٧٠٩٨.

(٣) سعيد بن جبير الوالبى مولاهم الكوفى المقرىء الفقيه أحد الأعلام، سمع ابن عباس وعدى بن حاتم، وابن عمر، وطائفة، قتله الحجاج فى شعبان سنة خمسٍ وتسعين، وله تسعُ وأربعون سنة على الأَشهر. [يُنظر: تذكرة الحفاظ ١/ ٧٦– ٧٧].

وقال الشافعى[٢] رحمه الله تعالى: «يجب على متعاطى الكأس أن ينهى على الجلّاس».

٤- كونه قادرًا، ولا يخفى أن العاجز ليس عليه حسبة إلا بقلبه، إذ كل من أحب الله تعالى يكره معاصيه ولا ينكرها.

ولا يقف سقوط الوجوب على العجز الحسى، بل يلتحق به ما يخاف عليه مكروهًا يناله، فذلك فى معنى العجز، وكذا إذا علم أن إنكاره لا ينفع.[٣]

هذا، ولا يشترط الإذن من الإمام، فإن الآيات والأخبار تدل على أن كل من رأى منكرًا فسكت عليه عصى، إذ يجب نهيه أينما رآه، وكيفما رآه على العموم، فالتخصيص بشرط التفويض من الإمام تحكّم لا أصل له.[٤]

وشرح القول فى هذا أن الحسبة لها خمس مراتب؛

أولها: التعريف، والثانى: الوعظ بالكلام اللطيف، والثالث: السب والتعنيف ولست أعنى بالسب الفحش، بل أن يقول: يا جاهل، يا أحمق، ألا تخاف الله، وما يجرى هذا المجرى، والرابع: المنع بالقهر بطريق المباشرة، ككسر الملاهى، وإراقة

---

(١) مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر، الحافظ فقيه الامة شيخ الإسلام أبو عبد الله الأصبحى المدنى الفقيه، إمام دار الهجرة، ولد سنة ستٍ وتسعين، وقيل اثنتان وستون، وتوفى سنة تسعٍ وسبعين ومائة فى منتصف ربيع الأول.[يُنظر: تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠٧-٣١٢].

(٢) الشافعى هو الإمام العلَم حبر الأمة أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشى المطلبى الشافعى المكى، نسيب رسول الله ﷺ وناصر سنته، ولد سنة خمسٍ ومائة بغزة فحُمل إلى مكة لما فُطم فنشأ بها، توفى أول شعبان سنة أربعٍ ومائتين بمصر، وقد انتقل إليها سنة تسعٍ وتسعين ومائة. [يُنظر: تذكرة الحفاظ ١/ ٣٦١- ٣٦٣].

(٣) يُنظر فى ذلك: إحياء علوم الدين، ٢/ ٣٢٢ – ٣١٤، والأحكام السلطانية للماوردى، والفتاوى لابن تيمية.

(٤) إحياء علوم الدين، ٣١٥/٢.

الخمر، واستلاب الثوب المغصوب منه ورده على صاحبه، والخامس: التخويف والتهديد بالضرب.

وسائر المراتب لا يخفى وجه استغنائها عن إذن الإمام، إلا المرتبة الخامسة، فإن فيها نظرًا.

أما التعريف والوعظ فكيف يحتاج إلى إذن الإمام، وأما التجهيل والتحميق والنسبة إلى الفسق، وقلة الخوف من الله وما يجرى مجراه فهو كلام صدق، والصدق مستحق، بل هو أفضل الدرجات كلمة حقٍ عند إمامٍ جائر – كما ورد فى الحديث الشريف[١] – فإذا جاز الحكم على الإمام – على مراغمته – فكيف يحتاج إلى إذنه...

وكذا كسر الملاهى وإراقة الخمور فإنه تعاطى ما يعرف كونه حقًا من غير اجتهاد، فلم يفتقر إلى إذن الإمام.[٢]

---

(١) حديث ((أفضل الجهاد كلمة حق عند إمامٍ جائر))، أخرجه أبو داوود والترمذى وحسنه، وابن ماجة من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، وعند الترمذى ((إن من أعظم الجهاد كلمة عدلٍ عند سلطانٍ جائر))، [كتاب الفتن، باب ١٣، رقم ٢١٧٤].

(٢) إحياء علوم الدين، ٣١٥/٢.

المبحث الثالث: الواقع فى المنكر، وشروطه.

سبق ذكر شروط الذى يقوم بتغيير المنكر، وأما الواقع منه المنكر فلا يشترط فيه مثل هذه الشروط، وشرطه: أن يكون بصفة يصير الفعل الممنوع منه فى حقه منكرًا، وأقل ما يكفى فى ذلك أن يكون إنسانًا، ولا يشترط كونه مكلفًا(١)، ولا يشترط كونه مميزًا.(٢)

أما تغيير المنكر من الكافر: فهذا يرجع إلى نوع ذلك المنكر ومحله، فإن كان مما لا يتعلق به حق مسلم فلا يجب على المسلم تغييره، ولا أن يمنعه من ذلك، إلا إذا تحاكم إلينا فيحمل على ما حكم به الإسلام، وإن تعلق المنكر بحق مسلم وجب منعه منه، وإنزاله على ما يقضى به الإسلام حفاظًا على حق المسلم، أو حق الأمة والدعوة.. ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة/ ٤٩]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة/٤٢].

قال العلامة القرطبى – رحمه الله تعالى –: هذا تخيير من الله تعالى، ذكره القشيرى، وتقدم معناه: أنهم كانوا أهل موادعة لا أهل ذمة، فإن النبى ﷺ لما قدم المدينة وادع اليهود، ولا يجب علينا الحكم بين الكفار إذا لم يكونوا أهل ذمة، بل يجوز الحكم إذا أردنا.

فأما أهل الذمة فهل يجب علينا الحكم بينهم إذا ترافعوا إلينا؟ قولان للشافعى.

وإن ارتبطت الخصومة بمسلم يجب الحكم، قال المهدوى: أجمع العلماء على أن على الحاكم أن يحكم بين المسلم والذمى.

---

(١) فالصبى إذا أراد شرب الخمر مُنع منه واحتسب عليه، وإن كان قبل البلوغ.

(٢) فالمجنون يمنع من ارتكاب المنكرات، أو إتلاف ماله أو مال غيره. [ينظر: إحياء علوم الدين، ٢/ ٣١٧].

وقال الزهرى: مضت السنة أن يرد أهل الكتاب فى حقوقهم ومواريثهم إلى أهل دينهم، إلا أن يأتوا إليه راغبين فى حكم الله تعالى، فيحكم بينهم بكتاب الله تعالى.[١]

(١) ينظر: تفسير القرطبى، ٦/ ١٢٠ – ١٢١.

المبحث الرابع: وسائل تغيير المنكر

((سورة الكهف نموذجًا))

تعددت وسائل تغيير المنكر فى الأحاديث وها أنا أورد بعضًا منها للوقوف على تلك الوسائل:

- حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان﴾(١).
- حديث ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ﴿...فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل﴾.
- حديث أم سلمة رضى الله عنها عن الرسول ﷺ: ﴿...ستكون أمراء، تعرفون وتنكرون، فمن عرف برىء ومن أنكر سلم، ولكن من رضى وتابع، قالوا: أفلان نقاتلهم؟ قال: لا، ما صلوا﴾(٢).
- عن ابن عباس رضى الله عنهما...: ﴿من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه فإن من فارق الجماعة شبرًا فمات، إلا مات ميتة جاهلية﴾(٣).

من هذه الأحاديث الشريفة وغيرها يتضح لنا ذكر وسائل تغيير المنكر، وهى:

اليد، واللسان، والقلب، والمعرفة، والإنكار، والصبر، والجهاد، فما المراد بكل وسيلة منها؟

---

(١) رواه الترمذى، كتاب الفتن، باب ما جاء فى تغيير المنكر، رقم ٢١٧٢.

(٢) رواه مسلم، كتاب الإمارة، أرقام ٦٢، ٦٤، ورواه الترمذى، كتاب الفتن، باب ٧٨، رقم ٢٢٦٥.

(٣) رواه البخارى فى صحيحه، كتاب الفتن، باب ٢، سترون بعدى أمورًا تنكرونها، رقم ٧٠٥٤، ورواه مسلم، كتاب الإمارة، رقم الحديث ٥٥.

أولا: اليد.

يقول الراغب: اليد: الجارحة، والقوة، ويقال: وضع يده فى كذا: إذا شرع فيه، ويده مطلقة: عبارة عن إيتاء النعيم، ويده مغلولة: عبارة عن إمساكها، وخص لفظ اليد: ليتصور لنا المعنى إذ هو أجل الجوارح التى يتولى بها الفعل... وقوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أى نصرته ونعمته وقوته.(١)

وقال ابن منظور: اليد: الكف، واليد: النعمة والإحسان تصطنعه والمنة والصنيعة، وإنما سيمت يدًا لأنها إنما تكون بالإعطاء، والإعطاء إنالة باليد... قال الأصمعى: أعطيته مالا عن ظهر يد، يعنى: تفضلا... وقال الليث: اليد: النعمة السابغة، واليد: القوة، وأيده الله تعالى أى قوّاه.(٢)

ثانيًا: اللسان.

قال ابن منظور: اللسان: جارحة الكلام، وقد يكنى بها عن الكلمة.. واللسان: المِقْوَل، والجمع: ألسنة – فيمن ذكّر – وألسن – فيمن أنّث –، قال ابن برى: اللسان: الرسالة والمقالة.. واللسان: اللغة، والثناء الحسن، ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾.. واللسَن: الفصاحة.. ولسان القوم: المتكلم عنهم.(٣)

ثالثًا: القلب.

يقول الراغب: قلب الشيء: تصريفه وصرفه عن وجه إلى وجه، كقلب الثوب، وقلب الإنسان: أى صرفه عن طريقته.. وقلب الإنسان: قيل: سمى به لكثرة تقلبه، ويعبر بالقلب عن المعانى التى تختص به من الروح والعلم والشجاعة وغير ذلك.(٤)

---

(١) المفردات للراغب، مادة يد.

(٢) لسان العرب، مادة يد.

(٣) لسان العرب، مادة لسن.

(٤) المفردات، مادة قلب.

ويقول ابن منظور: القلب: تحويل الشيء عن وجهه، قلبه يقلبُه قلبًا.. وقلّبه: حوله ظهرًا لبطن.. والقلب أيضًا: صرفك إنسانًا، تقلبُه عن وجهه الذى يريده.. وقلّب الأمور: بحثها ونظر فى عواقبها.. وقلبه عن وجهه: صرفه.(١)

والناظر فى مفردات هذه الأحاديث الشريفة يجد من وسائل تغيير المنكر؛ القوة، والشروع فى الشيء، وإيتاء النعيم، والإحسان، والفضل، والنصرة.

وبالنسبة للسان: الكلام، واللغة، والرسالة، والفصاحة، والثناء الحسن.

وبالنسبة للقلب: تقليب الأمور، والصرف عن وجه إلى وجه.

كما نجد فى حديث السيدة أم سلمة رضى الله عنها: ﴿فمن عرف برىء ومن أنكر سلم﴾.

ونجد فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما: ﴿فليصبر﴾.

وفى حديث ابن مسعود رضى الله عنه: ﴿فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن﴾.

ففى هذه الأحاديث: المعرفة، والإنكار، والصبر، والجهاد.

هذا، وقد ذكرنا كلام حجة الإسلام الغزالى فى مراتب تغيير المنكر بحسب ترتيبه لها؛ التعريف، ثم الوعظ بالكلام اللطيف، ثم السب والتعنيف، ثم المنع بالقهر المباشر، ثم قال: وسائر المراتب لا يخفى وجه استغنائها عن إذن الإمام إلا المرتبة الخامسة، فإن فيها نظرًا وهى التخويف والتهديد والضرب.

وأقف على بيان كلمة الحديث ﴿فليغيره﴾ من كتب اللغة.

يقول ابن منظور: تغيّر الشيء عن حاله: تحول، وغيّره: حوّله وبدّله، كأنه جعله غير ما كان، وفى التنزيل العزيز: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى

---

(١) لسان العرب، مادة قلب.

قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، قال ثعلب: معناه حتى يبدلوا ما أمرهم الله.. وقولهم: نزل القوم يغيّرون، أى: يصلحون الرحال.(١)

ويقول الفيومى: وغيّرت الشىء تغييرًا: أزلته كان عليه فتغير هو.(٢)

ويقول الراغب: والتغيير يقال على وجهين؛ أحدهما: لتغيير صورة الشىء دون ذاته، يقال: غيرت دارى، إذا بنيتها بناء غير الذى كان، والثانى: لتبديله بغيره، نحو: غيرت غلامى ودابتى، إذا أبدلتهما بغيرهما.(٣)

وكذا كلمة (فلينكره)

يقول الراغب: الإنكار: ضد العرفان، يقال: أنكرت كذا ونكرت، وأصله: أن يَرِدَ على القلب ما لا يتصوره، وذلك ضرب من الجهل.. وتنكير الشىء من حيث المعنى: جعله بحيث لا يُعرف.(٤)

وبعد هذا الاسترسال يمكن القول بأن تغيير المنكر باليد يدخل تحته:

إيتاء النعيم، والإحسان، والفضل، والشروع فى الشىء، والقوة، والنصرة.

ويدخل تحت التغيير باللسان:

الكلام، والرسالة، والفصاحة، والثناء الحسن.

ويدخل تحت التغيير بالقلب:

تقليب الأمور، والصرف عن جهة إلى أخرى.

ويدخل تحت التغيير بالإنكار:

جعله نكرة، وجعله بحيث لا يُعرف.

---

(١) لسان العرب، مادة غير.

(٢) المصباح المنير، لأحمد بن محمد بن على المقرى الفيومى، مادة غير، ط المكتبة العلمية، بيروت.

(٣) المفردات، مادة غير.

(٤) المفردات، مادة نكر.

ويفيد لفظ ﴿فليغيره﴾ الوارد فى الأحاديث: تبديل المنكر بغيره، وتحويله وجعله غير ما كان، والإصلاح.

فالأحاديث الشريفة قد ذكرت وسائل التغيير ومسالكه، وأحاطت بها إحاطة جامعة.. فكان ما ذكره السول ﷺ من وسائل التغيير شاملا وجامعًا لما يقع من الإنسان من أقوال وأعمال.

ومع بيان ((سورة الكهف نموذجًا)) وتحته ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: نموذج تغيير المنكر باليد من خلال قصة ذى القرنين.

تمهـــيد:

للقصص القرآنى وقعه الخاص فى القلوب، وأثره العظيم فى التربية، حيث تحتل مرتبة التربية بالقصة صدارة وسائل التربية، وقد أنزل الله تعالى القصص فى القرآن للاعتبار، كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وإثبات النبوة، وتصديق الكتب المنزلة السابقة، وهداية ورحمة للمؤمنين، ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف/ ١١١].

فحق لنا أن ننهل منه، ونغترف من دروسه.

❖ كلمة عن سورة الكهف:

سورة الكهف مفتتحة بالحمد حتى يكون افتتاح النصف الثانى من القرآن بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كما كان افتتاح النصف الأول بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ وكما كان أول الربع الرابع من تقريبًا بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.[1]

---

(١) التحرير والتنوير، ١٥/ ٢٤٥.

والقصص هو العنصر الغالب فى هذه السورة، ففى أولها تجىء قصة أصحاب الكهف، وبعدها قصة الجنتين، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس، وفى وسطها تجىء قصة موسى مع العبد الصالح، وفى نهايتها قصة ذى القرنين.

ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة الكريمة، فهو وارد فى إحدى وسبعين آية من عشرٍ ومائة آية، ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على القصص فيها.

وإلى جوار القصص بعض مشاهد القيامة، وبعض مشاهد الحياة التى تصور فكرةً أو معنى، على طريقة القرآن فى التعبير والتصوير.

أما المحور الموضوعى للسور الذى ترتبط به موضوعاتها، ويدور حوله سياقها فهو:

تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج النظر والفكر، وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة.(١)

وفى ضوء سورة الكهف على – كثرة دروسها – ننهل اليوم من درسٍ عظيمٍ فيها، فقد بين الله عز وجل فى ثلاث قصصٍ منا أمورًا جلية عظيمة، ينبغى التوقف عندها، والاهتمام بها، فقد وضح الله تعالى مراتب إنكار المنكر – الثلاث – بصورة عملية وواضحة.

الوسيلة الأولى من وسائل تغيير المنكر وهى التغيير باليد غير مقصورٍ على طائفة من الناس يكون لها أو عليها دون غيرها، بل هو عام يختلف مناطه ودرجته باختلافٍ بين من يقوم بالتغيير وبين من يقع منه المنكر، وهذا هو ما جرى مع العبد الصالح (ذى القرنين) الذى أعطاه الله الملك، وآتاه من كل شىءٍ سببًا فأتبع سببًا، فانطلق داعيًا إلى الله، مسخّرًا كل ما وُهب للدعوة إلى دين الله، مغيرًا كل منكر بيده،

---

(١) فى ظلال القرآن، ١٥/ ٢٢٥٦– ٢٢٥٧.

ومع آيات القصة؛ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (*) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (*) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (*) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (*) قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (*) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (*) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (*) حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (*) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (*) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (*) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (*) قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (*) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (*) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (*) فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (*) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف/ ٨٣- ٩٨].

المعنى العام للآيات الكريمة:

يقول الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى – رحمه الله تعالى –: ولنشرع فى المقصود وهو التفسير :قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو[1] عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا[2]﴾ أى: من ذى القرنين خبرًا، ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أى: مكنا له أمره من

---

(١) دخول السين فى قوله ﴿سَأَتْلُو﴾ معناه: إلى سأفعل هذا إن وفقنى الله تعالى عليه، وأنزل فيه وحيًا، وأخبرنى عن كيفية تلك الحال. [الرازى ٢١/ ١٦٦].

(٢) جعل خبر ذى القرنين تلاوة وذكرًا للإشارة إلى أن المهم من أخباره ما فيه تذكير، وما يصلح لأن يكون تلاوة حسب شأن القرآن، فإنه يتلى لأجل الذكر، ولا يُساق مساق القصص، وقوله

التصرف فيها كيف يشاء، ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أراده وتوجه إليه، ﴿سَبَبًا﴾ أى: بلاغًا ووصلة توصله إليه من العلم والقدرة والآلة، فأراد بلوغ المغرب، ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ سلك طريقًا يوصله إليه، ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ذات حمأة، يقال: حمئت البئر: صارت ذات حمأة، وفى قراءة أخرى[١] (حامية) أى: حارة.

وذلك لأنه لما بلغ ﴿مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾ أى: البلاد التى لا بلاد بعدها، تغرب عليها الشمس، حيث لم يكن عمران إلا ما عرفوه، وذلك عند بحر الظلمات – المسمى بالمحيط الأطلانطيقى – إذ وصل ذو القرنين الحميرى إلى بلاد تونس، ثم سار حتى وصل إلى مراكش، ووصل إلى ذلك البحر – المحيط – فوجد الشمس تضرب فى البحر رأى العين، وكل بحر فيه ماء وطين، أو ماؤه حال لإلحاح الشمس عليه.[٢]

تعالى: ﴿مِنْهُ ذِكْرًا﴾ تنبيه على أن أحواله وأخباره كثيرة، وأنهم إنما يهمهم بعض أحوالة المفيدة ذكرًا وعظة. [التحرير والتنوير، ١٦/ ٢٣].

(١) قرأ ابن عامر وحمزة والكسائى (حامية) أى: حارة، والباقون: (حمئة) أى: كثيرة الحمأة، وهى الطينة السوداء، [روح المعانى ١١/ ٣٣، والفتوحات الإلهية ٣/ ٤٤، والبيضاوى ٢/ ٢١، وابن كثير ٣/ ١٠٢، والطبرى ١٦/ ١١]، وأخرج عبد الرزاق وغيره عن ابن عباسٍ رضى الله عنهما قال: «كنا عند معاوية، فقرأ (فى عين حامية) فقلت له: ما نقرؤها إلا (فى عين حمئة)»، [والرازى ٢١/ ١٦٧، والتحرير ١٦/ ٢٦، والوسيط للواحدى ٣/ ١٦٤]، وهى قراءة سبعية، وأخرج سعيد بن منصور، عن طلحة بن عبيد الله أنه كان يقرأ (فى عين حامية)، وأخرج ابن أبى حاتم من طريق على عن ابن عباس رضى الله عنهما (فى عين حامية) يقول: حارة.
[يُنظر: الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، الإمام السيوطى، ٤/ ٤٤٦، ٤٤٧، ط١، ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية، بيروت].

(٢) ولكن يتعذر علينا تحديد المكان، لأن النص لا يحدده، وليس لنا مصدر آخر موثوق به نعتمد عليه فى تحديده، وكل قولٍ غير هذا ليس مأمونًا، لأنه لا يستند إلى مصدرٍ صحيح [الظلال ١٦/ ٢٢٩١].

﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا[1]﴾ أى: عند تلك العين، ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ[2]﴾ أى: بالقتل والأسر، ﴿وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا[3]﴾ بالإرشاد وتعليم الشرائع وتعفو وتصفح.

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أى: كفر، ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ نقتله، ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ﴾ فى الآخرة، ﴿فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا﴾ منكرًا، يعنى النار فهى أنكر من القتل.

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ أى: جزاء أعماله الصالحة، ﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا[4]﴾ أى: نلين له فى القول ونعامله باليسر.

﴿ثُمَّ﴾ لما أراد بلاد المشرق ﴿أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ طريقًا يوصله إليه ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾ أى: الموضع الذى تطلع عليه الشمس أولا من المعمورة ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ فلا لباس ولا بناء فهم عراة فى العراء، أو فى سراديب فى الأرض، ﴿كَذَلِكَ﴾ أى: أمر ذى القرنين كما وصفناه من رفعة الشأن وبسطة الملك ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من الجنود وآلات الحرب ﴿خُبْرًا﴾ علمًا تعلق بظاهره وخفياته.

﴿ثُمَّ﴾ لما أراد أن يتوسط بين المشرق والمغرب ﴿أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ طريقًا ثالثًا بينهما ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ الجبلين المبنى بينهما سد وهما جبلا أرمينية وأذربيجان،

---

(١) وتنكير (قومًا) يؤذن بأنهم أمة غير معروفة ولا مألوفة حالة عقائدهم وسيرتهم [التحرير ١٦/ ٢٦].

(٢) وقد دل قول الله تعالى: (إما أن تعذب...) على أنهم مستحقون للعذاب، فدل على أن أحوالهم كانت فى فساد من كفر وفساد عمل. [التحرير ١٦/ ٢٦].

(٣) وعدل عن (أن تحسن إليهم) إلى ﴿وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ مبالغة فى الإحسان إليهم. [التحرير ١٦/ ٢٦].

(٤) القول اليسر: هو الكلام الحسن، وصف باليسر المعنوى لكونه لا يثقل سماعه، وهو مثل قوله تعالى: ﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا﴾ أى: جميلا.. أى: يجازى بالإحسان والثناء. [التحرير ١٦/ ٢٧].

أو جبلان آخران عاليان فى آخر الشمال فى منقطع أرض الترك[١] ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ أى: قال مترجموهم ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ الآتى ذكرهما مع التحقيق ﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ فى أرضنا بالقتل والتخريب وإتلاف الزرع ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ جُعلا نخرجه من أموالنا ﴿عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ يحجز دون خروجهم علينا ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أى: ما جعلنى مكينًا فيه من المال والملك خير مما تبذلون لى من الخراج فإن الدولة القوية يجب عليها أن تحافظ على الضعيفة، وليس يجوز لها أن تأخذ أموالها ما دامت قادرة على إعانتها، وإذا احتاجت إلى شىء فليكن على قدر الحاجة، بخلاف ما عليه أوروبا الآن، فأمم الإسلام فى القرون الأخيرة، فإنهم ما حكموا الأمم إلا لأخذ أموالهم والتنعم بما جمعوا من الثروة.

وهذا هو الذى سيكون دأب الأمة الإسلامية حين تقوم قائمتها، ألا يأخذوا من مال الأمم إذا حكموهاشيئًا، وإذا أخذوا فليكن ذلك على قدر الحاجة، ويوكل ذلك إلى رأى المجالس الشورية فى الممالك الإسلامية التى ستكون أرقى، ويعلمون أن الله تعالى لا يولى على عباده إلا أنفعهم ولا أنفع لهم من هذا.

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أى: ما أتقوى به من الآلات ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ حاجزًا حصينًا وهو أكبر من السد، يقال: ثوب مردم، إذا كان فيه رقاع فوق رقاع ﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ الزبرة: القطعة الكبيرة، أى: قطع الحديد، فآتوه بها وبالحطب، فجعل الحطب على الحديد، والحديد على الحطب ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ جانبى الجبلين، وإنما سميت صدفين لأنها يتصادفان، أى: يتقابلان ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾ أى: قال للعملة انفخوا الأكوار والحديد ﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ﴾ جعل المنفوخ فيه ﴿نَارًا﴾ كالنار بالإحماء ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أى: صب عليه نحاسًا مذابًا، فجعلت

---

(١) يقول العلامة الجوهرى: وسترى تحقيق هذا المقام قريبًا فانتظره.

النار تأكل الحطب، وجعل النحاس يسيل مكانه حتى لزم الحديد النحاس ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ لعلوه وملاسته ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ من أسفله لشدته وصلابته.

﴿قَالَ﴾ ذو القرنين ﴿هَذَا﴾ السد ﴿رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ أى: نعمة من نعمه ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ أى: وقت خروجهم ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ أرضًا ملساء ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ كائنًا لا محالة ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أى: وجعلنا بعض يأجوج ومأجوج حين يخرجون مما وراء السد وبعض الناس يموج فى بعض، ويختلط العالم كله، بحيث يدخل يأجوج ومأجوج فى الأمم كلها، ويختلطون أجيالا وأجيالا – كما ستراه – كل ذلك قبل النفخ فى الصور بزمن مجهول لا يعلمه إلا الله[1] ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾.

❖ مناسبة ذكر القصة لما قبلها:

يقول ابن عاشور: وقدم القصة قصة ذى القرنين قصة أهم منها، وهى قصة موسى عليه السلام والخضر، لأن كلتا القصتين تشابهتا فى السفر لغرض شريف، فذو القرنين خرج لبسط سلطانه على الأرض، وموسى عليه السلام خرج فى طلب العلم.

وفى ذكر قصة موسى تعريضٌ بأحبار بنى إسرائيل، إذ تهمموا بخبر ملك من غير قومهم ولا من أهل دينهم، ونسوا خبرًا من سيرة نبيئهم.[2]

❖ دلالة السؤال والجواب فى القرآن الكريم.

---

(١) الجواهر فى تفسير القرآن المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات، تأليف الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى، ط٤، ١٩٩١م، دار إحياء التراث العربى ٩/ ١٩٩ – ٢٠٠.

(٢) التحرير والتنوير، ١٥/ ٢٤٥ – ٢٤٦.

وردت أسئلة كثيرة فى القرآن الكريم موجهة إلى الرسول ﷺ من المسلمين ومن غيرهم، ولا يخفى أن السؤال من المسلمين إنما يكون للمعرفة والإرشاد، ومن غيرهم قد يكون للمعرفة كما يجوز أن يكون على سبيل التعنت والإعجاز، وإجابة القرآن العظيم عن أسئلة السائلين إنما يدل على أن الرسول ﷺ يوحَى إليه، وهو مؤيد بالوحى من الله تعالى، وأنه يتلقى الإجابة من الذى أرسله سبحانه وتعالى، وكأنه تعالى يقول: «صدق عبدى فيما يبلغ عنى».

❖ من السائل عن قصة ذى القرنين وأصحاب الكهف؟.

يقول الطاهر بن عاشور: والذى يترجح عندى.. أن قريشًا استقوا من اليهود شيئًا، ومن النصارى شيئًا، فقد كانت لقريش مخالطة مع نصارى الشام فى رحلتهم الصيفية إلى الشام، لأن قصة أهل الكهف لم تكن من أمور بنى إسرائيسل، وإنما هى من شئون النصارى، بناءً على أن أهل الكهف كانوا نصارى.

وكذلك قصة ذى القرنين – إن كان المراد به الإسكندر المقدونى – يظهر مما عنى به النصارى، لارتباط فتوحاته بتاريخ بلاد الروم.

فتعين أن اليهود ما لقنوا قريشًا إلا السؤال عن الروح، وبهذا يتضح السبب فى إقرار السؤال عن الروح فى هذه السورة – يقصد سورة الإسراء – وذكر القصتين الأخريين فى سورة الكهف.

على أنه يجوز أن يتكرر السؤال فى مناسبات، وذلك شأن الذين معارفهم محدودة، فهم يلقونها فى كل مجلس.(١)

ويقول صاحب الجواهر: لقد تقدم فى سورة الإسراء أن الحديث المشهور وهو أنهم سألوه ﷺ عن الروح، وعن ذى القرنين، وعن أصحاب الكهف، لم يردّ فى الصحيح فلا يعول عليه.(١)

---

(١) التحرير والتنوير، ١٥/ ٢٤٥ – ١٩٨.

ويقول سيد قطب: ولتعدد الروايات فى أسباب النزول، نؤثر أن نقف فى ظل القصص القرآنى المستيقن، ومن هذا النص نعلم أنه كان هناك سؤال عن ذى القرنين، لا ندرى على وجه التحقيق من الذى سأله، ومالعرفة به لا تزيد شيئًا فى دلالة القصة، فلنواجه النص بلا زيادة.(٢)

❖ **التعريف بصاحب القصة (ذى القرنين).**

غالب المفسرين يذكرون اسم صاحب القصة ومن هو ومن أى بلاد الله، فمن يقول: إنه الاسكندر بن فيلبوس اليونانى(٣) من مقدونيا، وقيل: هو ملك من ملوك حمير هو تبع أبو كرب، وقيل: إنه ملك من ملوك الفرس.

ونحن تجاه هذا الاختلاف يحق علينا أن نستخلص من قصته فى هذه الآيات أحوالًا تقرب تعيينه، وتزييف ما عداه من الأقوال، وليس يجب الاقتصار على تعيينه من بين أصحاب هذه الأقوال، بل الأمر فى ذلك أوسع.

ولم يتجاوز القرآن ذكر هذا الرجل بأكثر من لقبه المشتهر به إلى تعيين اسمه وبلاده وقومه، لأن ذلك من شئون أهل التاريخ والقصص وليس من أغراض القرآن، فكان منه الاقتصار على ما يفيد الأمة من هذه القصة عبرة حكمية أو خِلقية، ولذلك قال الله تعالى: ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.

وهذه القصة القرآنية تعطى صفات لا محيد عنها:

إحداها: أنه كان ملكًا عادلًا صالحًا.

---

(١) الجواهر، ٩/ ١٢٥.

(٢) فى ظلال القرآن، سيد قطب، ١٦/ ٢٢٨٩، ط١١، ١٩٨٢م، دار الشروق.

(٣) يُنظر: تفسير الرازى ٢١/ ١٦٤، الطبرى ١٦/ ٨، البغوى ٣/ ١٧٨، ابن كثير ٣/ ١٠٠، البيضاوى ٢/ ٢١، أبو السعود ٥/ ٢٣٩، ٢٤٠، القرطبى ١١/ ٣١، الزمخشرى ٢/ ٤٠٠، أبو حيان ٦/ ١٥٨، ١٥٩، الشوكانى ٣/ ٣٠٧، الآلوسى ٨٦/ ٢٥، الجمل ٣/ ٤١-٤٣، الجواهر ٩/ ١٩٨ – ١٩٩.

الثانية: أنه كان ملهمًا من الله.

الثالثة: أن ملكه شمل أقطارًا شاسعة.

الرابعة: أنه بلغ فى فتوحه من جهة المغرب مكانًا كان مجهولًا وهو عين حمئة.

الخامسة: أنه بلغ بلاد يأجوج ومأجوج، وأنها كانت مما شمله ملكه غير الجهتين الشرقية والغربية، فكانت وسطًا بينهما، كما يقتضيه استقراء مبلغ أسبابه.

السادسة: أنه أقام سدًا يحول بين يأجوج ومأجوج وبين قومٍ آخرين.

السابعة: أن يأجوج ومأجوج هؤلاء كانوا عائثين فى الأرض فسادًا، وأنهم كانوا يفسدون بلاد قومٍ موالين لهذا الملك.

الثامنة: أنه كان معه قوم أهل صناعة متقنة فى الحديد والبناء.

التاسعة: أن خبره خفى دقيق لا يعلمه إلا الأحبار علمًا إجماليًا، كما دل عليه سبب النزول.

وأنت إذا تدبرت جميع هذه الأقوال نفيت أن يكون ذو القرنين اسكندر المقدونى، لأنه لم يكن ملكًا صالحًا، بل كان وثنيًا، فلم يكن أهلا لتلقى الوحى من الله تعالى، وإن كانت له كمالات على الجملة، وأيضًا: فلا يُعرف فى تاريخه أنه أقام سدًا بين بلدين...

فالذى يظهر لى: أن ذا القرنين كان ملكًا من ملوك الصين لوجوه:

أحدها: أن بلاد الصين اشتهر أهلها منذ القدم بانهم أهل تدبير وصنائع.

الثانى: أن معظم ملوكهم كانوا أهل عدلٍ وتدبيرٍ للمملكة.

الثالث: أن من سماتهم تطويل شعر رؤوسهم وجعلها فى ضفيرتين، فيظهر وجه تعريفه بذى القرنين.

الرابع: أن سدًا وردمًا عظيما لا يعرف له نظير فى العالم هو موجود بين بلاد الصين وبلاد المغول، وهو المشهور فى كتب الجغرافيا بالسور الأعظم.

الخامس: ما روت أم حبيبة عن زينب بنت جحش رضى الله عنهما أن النبى ﷺ خرج ليلة فقال: ﴿ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج هكذا، وأشار بعقد تسعين﴾[١].

وقد كان زوال عظمة سلطان العرب على يد المغول فى بغداد.

فتعين أن يأجوج ومأجوج هم المغول، وأن الردم الذكور فى القرآن هو الردم الفاصل بين بلاد المغول وبلاد الصين، وبانيه ملك من ملوكهم.. واسم هذا الملك (تْسينْ شى هْوَ انْتْ تيِ) وكان موجودًا فى حدود سنة سبعٍ وأربعين ومائتين قبل ميلاد المسيح عليه السلام، فهو متأخر عن اسكندر المقدونى بنحو قرن، وبلاد الصين فى ذلك العصر كانت متدينة بدين (كنفوشيوس) المشرع المصلح، فلا جرم أن يكون أهل شريعته صالحين.[٢]

إن النص القرآنى لا يذكر شيئًا عن ضخصية ذى القرنين، ولا عن زمانه أو مكانه، وهذه هى السمة المطردة فى قصص القرآن، فالتسجيل التاريخى ليس هو المقصود، إنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة، والعبرة تتحقق بدون حاجةٍ إلى تحديد الزمان والمكان فى أغلب الأحيان.

والتاريخ المدون يعرف ملكًا اسمه الاسكندر ذو القرنين، ومن المقطوع به أنه ليس ذا القرنين المذكور فى القرآن، فالاسكندر الإغريقى كان وثنيًا، وهذا الذى يتحدث عنه القرآن مؤمن بالله، معتقد بالبعث والآخرة.[٣]

قال أحد الشعراء من حمير:

---

(١) البخارى، كتاب المناقب، باب ٢٥ علامات النبوة فى الإسلام، رقم ٣٥٩٨، وفى كتاب الأنبياء، باب ٧، مسلم، كتاب الفتن، باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، رقم ١، الترمذى، كتاب الفتن، باب ٢٣، وابن ماجة، كتاب الفتن، باب ٩.

(٢) يُنظر: التحرير والتوير ١٦/ ٢٨ – ٢٢.

(٣) فى ظلال القرآن ١٦/ ٢٢٨٩.

قد كان ذو القرنين قبل مسلمًا ***ملكًا تدين له الملوك وتسجد
بلغ المغارب والمشارق يبتغى***أسباب أمر من حكيم مرشد فرأى مغيب الشمس عند غروبها *** فى عين ذى خُلُبٍ وثأطٍ حرمد(١)

❖ **رحلات ذى القرنين.**

سجل السياق القرآنى لذى القرنين ثلاث رحلات؛ واحدة إلى المغرب، وواحدة إلى المشرق، وواحدة إلى مكان بين السدين.. مع التمكين له(٢) ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾.

▪ رحلة إلى المغرب ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ﴾.

النص القرآنى لا يحدد هذا المكان، وهنا أعلن ذو القرنين دستوره فى معاملة أهل البلاد المفتوحة، التى دان له أهلها، وسلطه الله عليها.

وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ قال القشيرى أبو نصر: إن كان نبيًا فهو وحى، وإن لم يكن نبيًا فهو إلهام من الله تعالى.

قال ابن الأنبارى: إن كان ذو القرنين نبيًا فإن الله تعالى قال له كما قال للأنبياء إما بتكليم أو بوحى، ومن قال لم يكن نبيًا قال: معنى ﴿قُلْنَا﴾ ألهمنا، لأن الإلهام ينوب عن الوحى كقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص/ ٧] أى: ألهمناها.(٣)

---

(١) روح المعانى ١١/ ٣٤، الخُلُب: الطين، والثأط: الحمأة، الحرمد: الأسود، الرازى ٢١/ ١٦٥، الجواهر ١٥/ ١٩٩ بنحوه، البحر المحيط ٦/ ١٥٨– ١٥٩، الوسيط ٣/ ١٦٤– ١٦٥.

(٢) التمكين هنا: الإقدار وتمهيد الأسباب، يقال: مكنه ومكن له، ومعنى الأول: جعله قادرًا وقويًا، ومعنى الثانى: جعل له قدرة وقوة. [أبو السعود ٥/ ٢٤١].

(٣) الوسيط للواحدى ٣/ ١٦٥.

﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ قال إبراهيم بن السرى: خيره الله تعالى بين هذين الحكمين بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم إلى الإيمان.. وهذا يدل على أن سكان المغرب كانوا كفارًا.

ويجوز أن تكون ﴿إِمَّا﴾ ﴿وَإِمَّا﴾ للتوزيع دون التخيير، أى: وليكن شأنك معهم إما التعذيب وإما الإحسان، فالأول لمن بقى على حاله، والثانى لمن تاب.(١)

ولما خيره تعالى بين تعذيبهم ودعائهم إلى الإسلام اختار الدعوة والاجتهاد فى استمالتهم، قال: أما من دعوته فأبى إلا البقاء على الظلم وهو هنا الكفر بلا خلاف فذلك هو المعذب فى الدارين، وأما من آمن وعمل ما يقتضيه الإيمان فله جزاء الحسنى.

وأتى بحرف التنفيس فى ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ لما يتخلل بين إظهار كفره وبين تعذيبه من دعائه إلى الإيمان وتأبيه عنه، فهو لا يعاجلهم بالقتل على ظلمهم، بل يدعوهم ويذكرهم، فإن رجعوا وإلا القتل.(٢)

أعلن أن للمعتدين الظالمين عذابه الدنيوى وعقابه، وأنهم بعد ذلك يردون إلى ربهم فيعذبهم عذابًا فظيعًا ﴿عَذَابًا نُكْرًا﴾ لا نظير له فيما يعرفه البشر، أما المؤمنون الصالحون فلهم الجزاء الحسن، والمعاملة الطيبة، والتكريم والمعونة والتيسير.

وهذا هو دستور الحكم الصالح، ينبغى أن يجد الكرامة والتيسير، والجزاء الحسن عند الحاكم، والمعتدى الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء.. وحين يجد المحسن فى الجماعة جزاء إحسانه جزاءً حسنًا، ومكانًا كريمًا، وعونًا وتيسيرًا، ويجد المعتدى جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة.. عندئذٍ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج.

---

(١) أبو السعود ٥/ ١٤٣.

(٢) البحر المحيط ٦/ ١٦٠.

أما حين يضطرب ميزان الحكم، فإن المعتدون الفاسدون مقربون إلى الحاكم، مقدمون فى الدولة، وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون، فعندئذٍ تتحول السلطة فى يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد.(١)

▪رحلة إلى المشرق ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ﴾.

يقول الرازى رحمه الله تعالى: اعلم أنه تعالى لما بين أولا أنه قصد أقرب الأماكن المسكونة من مغرب الشمس، أتبعه ببيان أنه قصد أقرب الأماكن المسكونة من مطلع الشمس، فبين الله تعالى أنه وجد الشمس ﴿تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا(٢)﴾، وفيه قولان؛

الأول: أنه ليس هناك شجر ولا جبل ولا أبنية تمنع من وقوع الشمس عليهم.. فيكون عند طلوع الشمس يتعذر عليهم التصرف فى المعاش، وعند غروبها يشتغلون بتحصيل مهمات المعاش، خالهم بالضد من أحوال سائر الخلق.

والقول الثانى: أن معناه: أنه لا ثياب لهم، ويكونون كسائر الحيوانات عراة أبدًا، ويقال فى كتب الهيئة: إن أكثر حال الزنج كذلك، وحال كل من يسكن البلاد القريبة من خط الاستواء كذلك... قال بعض الجاز:

بالزنج حرّ غيَّر الأجسادا *** حتى كسى جلودها سوادا

---

(١) فى ظلال القرآن ١٦/ ٢٢٩١.

(٢) أى: إنها أرض مكشوفة، لا تحجبها عن الشمس مرتفعات ولا أشجار، فالشمس تطلع فيها حين تطلع بلا ساتر، وهذا الوصف ينطبق على الصحارى والسهول الواسعة، فهو لا يحدد مكانًا بعينه، حيث يجد الرائى أن الشمس تطلع على هذه الأرض المستوية المكشوفة، وقد يكون ذلك على شاطىء إفريقية الشرقى، وهناك احتمال لأن يكون المقصود بقوله: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ أنهم قوم عراة الأجسام لم يجعل لهم سترًا من الشمس. [الظلال ١٦/ ٢٢٩٢].

كذلك كانت حالته مع أهل المطلع كما كانت مع أهل المغرب، قضى فى هؤلاء كما قضى فى أولائك، من تعذيب الظالمين والإحسان إلى المؤمنين.(١)

▪ رحلة التوسط ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾(٢).

يقول الرازى رحمه الله تعالى: اعلم أن ذا القرنين لما بلغ المشرق والمغرب اتبع سببًا آخر، وسلك الطريق حتى بلغ بين السدين، وقد آتاه الله من العلم والقدرة ما يقوم بهذه الأمور..

الأظهر أن موضع السدين فى ناحية الشمال، وقيل: هما جبلان بين أرمينية وأذربيجان، وقيل: هذا المكان فى مقطع أرض الترك..

وأن ذا القرنين لما بلغ ما بين السدين ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾ أى: من ورائهما مجاوزًا عنهما ﴿قَوْمًا﴾ أى: أمة من الناس ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا(٣)﴾.. والمعنى:

---

(١) الرازى ٢١/ ١٦٩ – ١٧٠ باختصار، البحر المحيط ٦/ ١٦١.

(٢) السد: الجبل، ويطلق أيضًا على الجدار الفصل.. قال ابن الأعرابى: كا ما قابلك فسد ما وراء فهو سد وتعريف السدين تعريف الجنس، أى: بين سديم معينين، أى: اتبع طريقًا آخر غير المشرق وامغرب حتى بلغ بين جبلين معلومين. [التحرير ١٦/ ٣٠ – ٣١، الوسيط ٣/ ١٦٦].

(٣) يقول ابن عاشور: ومعنى ﴿لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ أنهم لا يعرفون شيئًا من قول غيرهم، فلغتهم مخالفة للغات الأمم المعروفة.. فهؤلاء القوم لما كانوا يتكلمون بلغةٍ غريبة لانقطاع أصقاعهم عن الأصقاع المعروفة.. ويجوز أن يكون المعنى: أنهم يتوغلون فى البداوة والبلاهة فلا يفهمون ما يقصده من يخاطبهم.. ويجوز أنهم لا يدركون ما يُطلب منهم من طاعة ونظام، ومع ذلك فهم يعربون عما فى أنفسهم من الأغراض مثل إعراب الأطفال، ويجوز أنهم أمكنهم أن يفهم مرادهم بعد لأى.. وكاد هنا معناها المقاربة.
وقرأ حمزة والكسائى (يُفقِهون) بضم الياء وكسر القاف، أى: لا يستطيعون إفهام غيرهم قولَهم. [التحرير ١٦/ ٣١– ٣٢، الرازى ٢١/ ١٧٧، الطبرى ١٦/ ١٦].

أنهم لا يعرفون غير لغة أنفسهم، وما كانوا يفهمون اللسان الذى يتكلم به ذو القرنين.[١]

ويقول ابن عاشور: وهؤلاء القوم مجاورن (يأجوج ومأجوج)[٢] وكانوا أضعف منهم، فسألوا ذا القرنين أن يقيهم من فساد يأجوج ومأجوج.

ولم يذكر المفسرون تعيين هؤلاء القوم، ولا أسماء قبيلهم، سوى أنهم قالوا: هم فى منقطع بلاد الترك نحو المشرق، وكانوا قومًا صالحين، فلا شك أنهم من قبائل بلاد الصين التى تتاخم بلاد المغول والتتر.

وافتتاحهم الكلام بالنداء: أنهم نادوه نداء المستغيثين المضطرين..

والذى يجب اعتماده أن (يأجوج ومأجوج) هم المغول والتتر.[٣]

ويقول سيد قطب: وعندما وجدوه فاتحًا قويًا، وتوسموا فيه القدرة والصلاح، عرضوا عليه أن يقيم لهم سدًا فى وجه يأجوج ومأجوج الذين يهاجمونهم من وراء الحاجزين، ويغيرون عليهم من ذلك الممر، فيعيثون فى أرضهم فسادًا، ولا يقدرون هم على دفعهم وحدهم.. وذلك فى مقابل خراجٍ من المال يجمعونه له من بينهم.

وتبعًا للمنهج الصالح الذى أعلنه ذلك الملك الصالح من مقاومة الفساد فى الأرض، فقد ردَّ عليهم المال وتطوع بإقامة السد، ورأى أن أيسر طريقة لإقامته هى: ردم الممر بين الاحجزين الطبيعيين.

فطلب إلى أولئك القوم المتخلفين أن يعينوه بقوتهم المادية والعضلية ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (*) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ[١]﴾.

---

(١) الرازى، ٢١/ ١٧٠ – ١٧١.

(٢) يقول ابن عاشور: فى معنى (يأجوج ومأجوج): وغالب ظنى أنه اسم وضعه القرآن حاكى به معناه فى لغة تلك الأمة المناسب لحال مجتمعهم، فاشتق لها من مادة (الأج) وهو الخلط، إذ قد علمت أن تلك الأمة كانت أخلاطًا من أصناف. [التحرير ١٦/ ٣٤].

(٣) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٢-٣٣، ويُنظر: الرازى ٢١/ ١٧٠-١٧١.

فجمعوا له قطع الحديد، وكومها فى الفتحة بين الحاجزين، الإصبحا كأنهما صدفتان تغلقان ذلك الكوم بينهما ﴿حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ وأصبح الركام بمساواة القمتين، ﴿قَالَ انْفُخُوا﴾ على النار لتسخين الحديد ﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ كله لشدة توهجه واحمراره ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ أى: نحاسًا مذابًا يتخلل الحديد، ويختلط به فيزيده صلابة.(٢)

بذلك التحم الحاجزان، وأُغلق الطريق على يأجوج ومأجوج ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ بتسوره ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا(٣)﴾ فينفذون منه، وتعذر عليهم أن يهاجموا أولئك القوم الضعاف المتخلفين فأمنوا واطمأنوا.(٤)

وجملة ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ مستأنفة استئنافًا بيانيًا، لأنه لما آذن الكلام بانتهاء حكاية وصف الردم، وكان ذلك مثيرًا سؤال من يسأل: ماذا صدر من ذى القرنين حين أتم هذا العمل العظيم؟ فيُجاب بجملة ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾.

والإشارة بهذا إلى الردم، وهو رحمة للناس لما فيه من رد فساد أمة يأجوج ومأجوج عن أمة أخرى صالحة.(١)

---

(١) قال ابن عاشور: ﴿آتُونِي﴾ الإيتاء ويستعمل فى حقيقة معناه وهو المناولة، وليس تكليفًا للقوم أن يجلبوا له الحديد من معادنه، لأن هذا ينافى قوله ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أى: أنه غنى عن تكليفهم إنفاقًا علىجعل السد، وكأن هنا القصد إقامة أبواب من حديد فى مداخل الردم لمرور سيول الماء فى شعب الجبال حتى لا ينهدم البناء، بأن جعل الأبواب الحديدية كالشبابيك تمنع مرور الناس، ولا تمنع انسياب الماء من بين قضبها. [التحرير والتنوير ١٦/ ٣٦].

(٢) وقد استعملت هذه الطريقة حديثًا فى تقوية الحديد، فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته، وكان هذا الذى هدى الله تعالى إليه ذا القرنين، وسجله فى كتابه الخالد سبقًا للعلم البشرى الحديث بقرون، لا يعلم عددها إلا الله. [فى ظلال القرآن ١٦/ ٢٢٩٣].

(٣) الضمير فى ﴿اسْطَاعُوا﴾ و ﴿اسْتَطَاعُوا﴾ ليأجوج ومأجوج.

(٤) فى ظلال القرآن ١٦/ ٢٢٩٢ – ٢٢٩٣.

ولما كان كل شيءٍ له ابتداء له انتهاء وزوال، قال ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي﴾ يعنى: إذا قرب مجيء يوم القيامة ﴿جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾ مدكوكًا مسوى بالأرض ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ لا يتخلف.

وبذلك تنتهى هذه الحلقة من سيرة ذى القرنين، النموذج الطيب للحاكم الصالح، يمكّنه الله فى الأرض، وييسّر له الأسباب، فيجتاح الأرض شرقًا وغربًا، ولكنه لا يتكبر ولا يتجبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للمغنم المادى، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق، ولا يسخّر أهلها فى أغراضه وأطماعه.. إنما ينشر العدل فى كل مكان يحل به، ويساعد المتخلفين، ويدرأ عنهم العدوان دون مقابل، ويستخدم القوة التى يسرها الله له فى التعمير والإصلاح، ودفع العدوان، وإحقاق الحق، ثم يُرجع كل خير بحققه إلى الله تعالى على يديه إلى رحمة الله وفضل الله، ولا ينسى – وهو فى إبان سطوته – قدرة الله وجبروته، وأنه راجع إلى الله.(٢)

يقول العلامة الجوهرى: فانظر إلى قصة ذى القرنين وقصة يأجوج ومأجوج ذو القرنين وصفه الله بصفات تنطبق على رجل عظيم مصلح؛

١) فقد خيره الله تعالى لما بلغ مغرب الشمس بين اللين والشدة، فاختار وضع كل منهما فى مقامه.

٢) وعرض عليه القوم مالا لأجل أن يجعل لهم سدًا فأبى وقال – ما معناه – كلا، الله أعطانى نعمة وسأصرفها فى منفعة عباده، ولكن أعينونى بقوة.

٣) ثم قال: إن هذا رحمة من ربى، وذكر أن كل أعمال الخلق لا بد لها يومًا من الزوال.(٣)

---

(١) التحرير والتنوير ١٦/ ٣٩.

(٢) فى ظلال القرآن ١٦/ ٢٢٩٣.

(٣) الجواهر ٩/ ٢١٠ – ٢١١.

تعقيب:

هذا، والقصة فيها بيان تغيير المنكر باللسان، والدعوة إلى الله بالهدى والرشاد، ثم كان التغيير باليد ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ وهذا التعذيب يكون فقط للإمام، وليس للأفراد، لئلا يتقاتل الناس وتكون فتنة وفساد كبير.

ثم كان تغيير المنكر باليد، ومن معانيها العطاء والبذل ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ والعمل الجاد ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾.

المطلب الثاني: نموذج تغيير المنكر باللسان

من خلال قصة صاحب الجنتين.

يقول الله عز وجل: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (*) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (*) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (*) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (*) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (*) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (*) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (*) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (*) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (*) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (*) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (*) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا

كَانَ مُنْتَصِرًا (*) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [سورة الكهف/ ٣٢ – ٤٤].

المعنى العام للآيات الكريمة (القصة):

يقول أبو الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى رحمه الله تعالى:

قول الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ قال عطاء عن ابن عباسٍ رضى الله عنهما: يريد ابنى ملكٍ كان فى بنى إسرائيل تُوفى وترك ابنين، فاتخذ أحدهما الجنان والقصور، والآخر كان زاهدًا فى الدنيا راغبًا فى الآخرة، فكان إذا عمل أخوه شيئًا من زينة الحياة الدنيا، أخذ مثل ذلك فقدمه لآخرته، وأخذ به عن الله الجنان والقصور حتى نفد ماله، فضربهما الله تعالى مثلا للمؤمن والكافر الذى أبطرته النعمة.(١)

وهو قوله: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ الحف: الإحاطة بالشىء ومنه قوله تعالى: ﴿حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ [الزمر/ ٧٥] يقال: جعلنا النخيل مطيفًا بهما ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: بين الجنتين ﴿زَرْعًا﴾.(٢)

---

(١) يُنظر: تفسير القرطبى ١٠/ ٢٥٩، روح المعانى ١٥/ ٢٧٣، كلاهما عن ابن عباسٍ رضى الله عنهما، تفسير الرازى ٢١/ ١٢٥، البحر المحيط ٦/ ١٢٤، الفتوحات الإلهية ٣/ ٢٢– ٢٣، أبو السعود ٥/ ٢٢١، فتح القدير ٣/ ٢٨٥، الكشاف ٢/ ٣٨٩، البغوى ٣/ ١٦١، البيضاوى ٢/ ١١، القرطبى ١٠/ ٢٥٩–٢٦٠، التحرير ١٥/ ٣١٦.

(٢) قال العلامة الجمل فى ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ أى: ليكون كلا منهما جامعًا للأقوات والفواكه، متواصل العمارة على الشكل الحسن والتركيب الأنيق. [البيضاوى ٢/١١، الفتوحات الإلهية ٣/ ٢٣، أبو السعود ٥/ ٢٢١، فتح القدير ٣/ ٢٨٦، البحر ٦/ ١٢٤، عن الزمخشرى قال ابن عطية: وتأمل هذه الهيئة التى ذكر الله، فإن المرء لا يكاد يتخيل أجلّ منها فى مكاسب الناس، جنتاعنب أحاط بهما نخل وبينهما فسحة هى مزروع لجميع الحبوب والماء المعين يسقى جميع ذلك من النهر [البحر ٦/ ١٢٤]].

ثم أخبر أنهما كانا يؤديان حملهما من نخلهما وأعنابهما، والزرع الذى كان بينهما، ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ أى: آتت صاحبها أكلها، وهو ما يؤكل منها من الريع ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ لم تنقص، يقال: ظلمه حقه، أى: نقصه ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا﴾ أنبطنا[1] وأخرجنا وسط الجنتين ﴿نَهَرًا (*) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ أى: للأخ الكافر، قال الوالبى: مال[2]، وقال مجاهد: ذهب وفضة[3]، وقال فتادة: من كل المال.

وقُرىء ثُمُر وثُمْر بضم الثاء وسكون الميم، قال الليث: الثَمر: حمل الشجر، والثُمر: أنواع المال، ويقال: أثمر الرجل إذى كثر ماله، وثمر الله مال فلان: كثره.. والمفسرون على أن الثمر هنا الأموال.[4]

﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ﴾ لأخيه ﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ يراجعه الكلام ويجاوبه ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ النفر والقوم والرهط معناها الجمع، لا واحد لها من لفظها، قال ابن عباس رضا الله عنهما: يريد كثرة العبيد وعزه فيهم، وقال قتادة: وتلك والله أمنية الفاجر، كثرة المال، وعزة النفر، وهم الخدم والحشم[5]، وقال غيره: يعنى عشيرة ورهطًا.

قوله ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾ قال المفسرون: أخذ بيد أخيه المسلم فأدخله جنته، يطوّف به فيها ويريه إياها، ويعجّبه منها، ﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ بالكفر بالله ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ

---

(١) الماء ينبط إذا نبع [يُنظر: ترتيب القاموس ٤/ ٣١٤].

(٢) يُنظر: البحر المحيط ٦/ ١٢٥ عن أبى عمرو بن العلاء.

(٣) يُنظر: تفسير البغوى ٣/ ١٦٢، البحر ٦/ ١٢٥، القرطبى ١٠/ ٢٦٢، عن ابن عباس رضى الله عنهما، وروح المعانى ١٥/ ٢٧٢، والرازى ٢١/ ١٢٦، الطبرى ١٥/ ٢٤٥.

(٤) يُنظر فى القراءات: النشر فى القراءات العشر ٢/ ٣١٠، إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٢١٤، البحر ٦/ ١٢٥، البغوى ٣/ ١٦٢، وفى اللغة: تهذيب اللغة ١٥/ ٨٣، الرازى ٢١/ ١٢٦، الفتوحات ٣/ ٢٣، أبو السعود ٥/ ٢٢٤.

(٥) يُنظر: البغوى ٣/ ١٦٢، القرطبى ١٠/ ٢٦٢، روح المعانى ٥/ ٢٧٥، أبو السعود ٥/ ٢٢١.

تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ أنكر فناء الدنيا وفناء جنته، وأنكر البعث والثواب بقوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ قال الزجّاج: أخبر أخاه بكفره بفناء الدنيا وقيام الساعة.(١)

﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي﴾ قال ابن عباس: يريد إن كان البعث حقًا(٢)، ﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ أى: كما أعطانى هذه فى الدنيا سيعطينى فى الآخرة أفضل منها، لكرامتى عليه.

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ فأجابه صاحبه، مكفرًا له بما قال ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ يعنى: أصل الخلقة ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ أكملك وجعلك معتدل الخلقة والقامة، ثم أعلمه أنه موحد فقال: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أصله: لكن انا، فخففت الهمزة وألقيت حركتها على النون الساكنة قبلها فصارت (لكن) فأدغموا الأولى فى الثانية، فصار (لكن) ومن قرأ (لكنا) بإثبات ألف (أنا) فإنه أثبت الألف فى الوصل كما ثبت فى الوقف.(٣)

ثم أقبل على أخيه يلومه قال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ بمعنى: (هلّا) وتأويله التوبيخ(٤)، ﴿قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ قال الفداء والزجاج: (ما) فى موضع رفع، على معنى: الأمر ما شاء الله(٥)، أى: هلا قلت حين دخلتها: الأمر بمشيئة الله وما شاء الله كان..

---

(١) يُنظر معانى القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٥.

(٢) يُنظر القرطبى ١٠/ ٢٦٢.. والسبب فى وقوعه فى هذه الشبهة: أنه تعالى لما أعطاه المال والجاه فى الدنيا ظن أنه إنما أعطاه ذلك لكونه مستحقًا والاستحقاق باقٍ بعد الموت، فوجب حصول العطاء، والمقدمة الأولى كاذبة، فإن فتح باب الدنيا على الإنسان يكون فى الأكثر للاستدراج. [الفتوحات ٣/ ٢٤، أبو السعود ٥/ ٢٢٢].

(٣) يُنظر: النشر فى القراءات العشر ٢/ ٣١٠، إتحاف فضلاء البشر ٢/ ٢١٤.

(٤) حرف التحضيض إذا دخل على الماضى كان للتوبيخ [الفتوحات ٣/ ٢٥].

(٥) يُنظر: معانى القرآن للفداء ٢/ ١٤٥، معنى القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٨، ويجوز أن تكون شرطية فتكون فى محل نصب مفعولا مقدمًا، والجواب محذوف، أى: ما شاء الله كان ووقع. [الفتوحات ٣/ ٢٥، أبو السعود ٥/ ٢٢٣، روح المعانى ١٥/ ٢٩٧].

كان.. ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ قال الزجاج: لا يقوى أحد على ما فى يديه من ملك ونعمة إلا بالله تعالى، ولا يكون له إلا ما شاء الله.(١)

ثم رجع إلى نفسه فقال: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ (أنا): عماد(٢) و (أقل) : مفعول ثانى لترن ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ﴾ قال ابن عباسٍ رضى الله عنهما: فى الآخرة(٣) ﴿خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ الحسبان: المرامى يرمى بها، قال النضر بن شميل: الحسبان سهام يرمى بها الرجل فى جوف قصبة، ينزع فى القوس، ثم يرمى بعشرين منها دفعة(٤)، والمعنى: يرسل عليها مرامى من عذابه، إما بردًا وإما حجارة، أو غيرهما مما يشاء من أنواع العذاب ﴿فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أرضًا لا نبات فيها، والزلق: المكان المزلفة، والمعنى: أنها تصير أرضًا جرداء لا نبات فيها ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا﴾ يعنى: النهر الذى فى خلالها ﴿غَوْرًا﴾ غائرًا ذاهبًا فى الأرض ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ لا يبقى له أثرٌ يطلبه به ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ يعنى: أُهلك، وأحيط العذاب بأشجاره ونخيله ﴿فَأَصْبَحَ﴾ الكافر ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ قال ابن عباس:

---

(١) يُنظر: معانى القرآن للزجاج ٣/ ٢٨٨.

(٢) عماد: أى مسند إليه، وجملة (إن ترنِ) فى مقابلة قول الكافر (أنا أكثر منك مالا) وكان الظاهر أن يتعرض فى الجزاء لأمر الولد كما تعرض لأمر المال، بأن يقال: (وعسى أن يؤتينِ خيرًا من ولدك ويصيبهم ببلاء يصبحوا هلكى) أو نحو ذلك وأجيب: بأنه لم يتعرض لذلك إشارة إلى استيلاء حب المال على قلب ذلك الكافر، وأنه يكفى فى نكايته وإغاظته تلف جنته، وإعطاء صاحبه المؤمن خيرًا منها يُنظر: روح المعانى ١٥/ ٢٨٢.

(٣) يُنظر: تفسير البغوى ٣/ ١٦٣، القرطبى ١٠/ ٢٦٥، روح المعانى ١٥/ ٢٨٠.

(٤) تهذيب اللغة ٤/ ٣٣٢، والحسبان: جمع حسبانة، أى: صواعق، ويجوز أن يكون (حسبانًا) مصدرًا كالغفران والبطلان، بمعنى الحساب، أى: مقدرًا قدره الله وحسابه، وهو الحكم بتخريبها. [الفتوحات ٣/ ٢٦، أبو السعود ٥/ ٢٢٣، روح المعانى ١٥/ ٢٨٠، فتح القدير ٣/ ٢٨٧، التحرير ١٥/ ٣٢٥].

يضرب يديه واحدةً على الأخرى[١]، وتقليب الكفين يفعله النادم كثيرًا، فصار عبارةً عن الندم ﴿عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ أى الجنة ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾ ساقطة ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ سقوفها وما عرش بكرومها ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ أخبر الله أنه سلبه ما أنعم عليه فى الدنيا، فندم حين لم ينفعه الندم وتمنى أن لو كان موحدًا غير مشرك ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: لم ينصره النفر الذين افتخر بهم فى قوله: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[٢]، ﴿وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا﴾ بأن يسترد بدل ما ذهب منه ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾.

وضربت هذه القصة مثلا للمؤمن والكافر، فالكافر تغره دنياه، ويتبجح بها، ويظن أنها تبقى له، والمؤمن من صبر على نوائبها، احتسابًا بها جميل الآخرة، ولا يركن إليها، لما يعلم من فنائها وسرعة انقضائها.[٣]

❖ مناسبة ذكر القصة لما سبقها:

يقول العلامة الشوكانى: قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ هذا المثل ضربه الله سبحانه وتعالى لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة الفقراء، فهو على هذا متصل بقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾.

ويقول الطبرى: واضرب يا محمد لهؤلاء المشركين بالله، الذين سألوك أن تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ﴿مَثَلًا﴾.

ويقول العلامة طنطاوى جوهرى: يعجب القارىء لهذه السورة، فإنه يجد فى أولها: ذكر أن ما على الأرض زينة لها، وأن هذه الزينة تذهب فلا وجود لها، ثم يجد

---

(١) يُنظر: تفسير البغوى ٣/ ١٦٣، القرطبى ١٠/ ٢٦٦، الرازى ٢١/ ١٢٨ – ١٢٩ كلهم بدون نسبة.

(٢) تنوير المقياس ٣/ ١٧٧.

(٣) يُنظر: الوسيط فى تفسير القرآن المجيد ٣/ ١٤٨ – ١٥٠.

هنا ضرب مثل الرجلين، إذا اغتر أحدهما بزينة الحياة الدنيا فهلك ثمره، وضرب مثل الحياة الدنيا كلها فيجدها كالزرع يصير هشيمًا فتذروه الرياح.

إذًا هذان المثلان وما قبلهما وما بعدهما كله إيضاح لما ذكر من الزينة الفانية فى أولها، لهذا ابتدأ السورة بالحمد على إنزال الكتاب، لأنه هو الذى أبان هذه الحقائق.(١)

ويقول الرازى: اعلم أن المقصود من هذا، أن الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين، فبين الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار، لاحتمال أن يصير الفقير غنيًا، والغنى فقيرًا، أما الذى يجب حصول المفاخرة به فطاعة الله وعبادته، وهى حاصلة لفقراء المؤمنين وبيّن ذلك بضرب هذا المثل المذكور.(٢)

تعقيب:

هذا، وظاهر القصة يدل على الحوار بين المؤمن والكافر، وهذا الحوار إنما يكون باللسان، وحاصل ما قاله الكافر من القول الشنيع ثلاث مقالات:

الأولى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

الثانية: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾.

الثالثة: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾.

وقد تعقبه المؤمن فى الثلاثة على سبيل اللف والنشر – المشوش –:

فوبخه على الأخير بقول: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾.

---

(١) يُنظر: فتح القدير ٣/ ٢٨٥، الطبرى ١٥/ ٢٤٤، ابن كثير ٣/ ٨٣، القرطبى ١٠/ ٢٥٩، الجواهر ٩/ ١٧٠.

(٢) تفسير الرازى ١٥/ ١٢٤ – ١٢٥.

ووعظه ونصحه على الثانية بقوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

وقرعه على الأولى بقوله: ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾.

تنبيه:

مع ظهور كفر الكافر بقوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ ورد المؤمن عليه بقوله: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ﴾ فإنه لم يغير هذا المنكر باليد.. وذلك؛ لأن هذا المؤمن ليس مخوّلا من قبل أهل الحكم فى بلده.

ولأن فى الإقدام على قتل صاحبه ما يترتب عليه من منكر أشد منه، وحصول فتنة فى المجتمع.

المطلب الثالث: نموذج تغيير المنكر بالقلب

من خلال قصة أصحاب الكهف.

يقول الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (*) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (*) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (*) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (*) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (*) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (*) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (*) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ

تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (*) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (*) وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (*) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (*) وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (*) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (*) وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (*) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (*) وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (*) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف/ ٩-٢٦].

المعنى العام لآيات القصة:

فى تفسير الجلالين: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ أى: أظننت ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ﴾ الكهف: الغار فى الجبل ﴿وَالرَّقِيمِ﴾ اللوح المكتوب فيه أسماؤهم[1]، وقد سُئل ﷺ عن قصتهم ﴿كَانُوا﴾ فى قصتهم ﴿مِنْ﴾ جملة ﴿آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ خبر كان، وما قبله حال، أى: كانوا

(١) يُنظر: تفسير الطبرى ١٥/ ١٩٩، القرطبى ١٠/ ٢٣٢، البغوى ١٤٥/٣، عن سعيد بن جبير، والوسيط ٣/ ١٣٧، عن ابن جبير وابن عباسٍ فى رواية عطاء، الدر المنثور ٤/ ٣٨٤، فتح القدير ٣/ ٢٧٢، ابن كثير ٣/ ٧٣، أبو السعود ٦/ ٢٠٦، الرازى ٢١/ ٨٣.

عجبًا دون باقى الآيات، أو: أعجبها! ليس الأمر كذلك، اذكر ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾[١] الفتية: جمع فتى ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ﴾ من قِبلك ﴿رَحْمَةً وَهَيِّئْ﴾ أصلح ﴿لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ هداية[٢] ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ أى: أنمناهم ﴿فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ معدودة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أيقظناهم ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ لنعلم علم مشاهدة أىّ الفريقين المختلفين فى مدة لبثهم ﴿أَحْصَى﴾ فعل بمعنى ضبط ﴿لِمَا لَبِثُوا﴾ – للبثهم متعلق بما بعده – ﴿أَمَدًا﴾ غاية.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ﴾ نقرأ ﴿عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ بالصدق ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (*) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ قوّيناها على قول الحق ﴿إِذْ قَامُوا﴾[*] بين

---

(١) فى سبب ذهاب الفتية إلى الكهف:

قال محمد بن إسحاق ومحمد بن يسار: مرج أهل الإنجيل وعظمت فيهم الخطايا ، وطغت فيهم الملوك، حتى عبدوا الأصنام وذبحوا للطواغيت، وفيهم بقايا على دين المسيح عليه السلام متمسكين بعبادة الله وتوحيده، فكان من فعل ذلك من ملوكهم ملك يقال له: دقيانوس، عبد الأصنام وذبح للطواغيت..

يُنظر: البغوى ٣/١٤٥-١٥٢، والوسيط ٣/ ١٣٨ – ١٣٩، والطبرى ١٥/ ٢٠٠ وما بعدها، الدر المنثور ٤/ ٣٨٦ وما بعدها، فتح القدير ٣/ ٢٧٣، ابن كثير ٣/ ٧٣ – ٧٤، القرطبى ١٠/ ٢٣٣ وما بعدها، روح المعانى ١٥/ ٢١٦ – ٢١٧، أبو السعود ٥/ ٢٠٩.

(٢) قال ابن عباسٍ رضى الله عنهما: (رشدًا) أى: مخرجًا من الغار فى سلامة. [القرطبى ١٠/ ٢٣٦].

(*) يقول القرطبى: قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا﴾ يحتمل ثلاثة معانٍ؛ أحدها: أن يكون هذا وصف مقامهم بين يدى الملك الكافر، وهو مقام يحتاج إلى الربط على القلب، حيث خالفوا دينه ورفضوا فى ذات الله هيبته، والمعنى الثانى فيما قيل: إنهم أولاد عظماء تلك المدينة، فخرجوا واجتمعوا وراء تلك المدينة من غير ميعاد، فقال أسنّهم: إنى أجد فى نفسى أن ربى رب السماوات والأرض، فقالوا: ونحن كذلك نجد فى أنفسنا، فقاموا جميعًا فقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾. والمعنى الثالث: أن يعبر بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله تعالى، ومنابذة الناس، كما تقول: قام فلان إلى أمر كذا، إذا

يدى ملكهم وقد أمرهم بالسجود للأصنام ﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ(*) مِنْ دُونِهِ﴾ أى: غيره ﴿إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا﴾ أى: قولا ذا شطط، أى: إفراط فى الكفر إن دعونا إلهًا غير الله فرضًا.

﴿هَؤُلَاءِ﴾ مبتدأ ﴿قَوْمُنَا﴾ عطف بيان ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا﴾(*) هلّا ﴿يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ بحجة ظاهرة ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أى: لا أحد أظلم ﴿مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك إليه سبحانه وتعالى.

قال بعض الفتية لبعض: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا﴾ – بكسر الميم وفتح القاف وبالعكس – ما ترتفقون به من غداءٍ وعشاءٍ ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ﴾ – بالتخفيف والتشديد(١) – تميل ﴿عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ ناحيته ﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ تتركهم وتتجاوز عنهم، فلا تصيبهم ألبتة ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ متسع

عزم عليه بغاية الجد [الكشاف ٢/ ٣٨٢، البحر ٦/ ١٠٥– ١٠٦، أبو السعود ٥/ ٢١٠، البيضاوى ٢/ ٥].

(*) ذكروا الدعاء دون العبادة، لأن الدعاء يشمل الأقوال كلها، من إجراء وصف الإلهية على غير الله، ومن نداء غير الله عند السؤال. [االتحرير ١٥/ ٢٧٣].

(*) وهو إخبار بمعنى الإنكار، إذ يستحيل وقوع سلطان بيّن على هؤلاء فلا يمكن فيه التحضيض الصرف، فحضوهم على ذلك على سبيل التعجيز لهم. [البيضاوى ٢/ ٥، البحر ٦/ ١٠٦، روح المعانى ١٥/ ٢١٩، الرازى ٢١/ ٩٨ – ٩٩، التحرير ١٥/ ٢٧٤].

(١) اختلف القراء فى قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء المدينة ومكة والبصرة (تزّاور) بتشديد الزاى، بمعنى: تتزاور بتاءين، ثم أدغم إحدى التاءين فى الزاى، كما قيل فى (تظاهرون عليهم).
وقرأ عامة قراء الكوفة (تَزَاور) بتخفيف التاء والزاى، كأنه عنه به: تفاعل من الزور. الطبرى ١٥/ ٢١٠، فتح القدير ٣/ ٢٧٤، القرطبى ١٠/ ٢٤٠، البيضاوى ٢/ ٦، الكشاف ٢/ ٢٨٢، البحر ٦/ ١٠٧ – ١٠٨، روح المعانى ١٥/ ٢٢٢، أبو السعود ٥/ ٢١١، الرازى ٢١/ ١٠٠، التحرير ١٥/ ٢٧٨.

من الكهف، ينالهم برد الريح ونسيمها ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ دلائل قدرته ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا وَتَحْسَبُهُمْ﴾ لو رأيتهم ﴿أَيْقَاظًا﴾ أى: منتبهين لأن أعينهم منفتحة، جمع يقِظ بكسر القاف ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ نيام، جمع راقد ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ لئلا تأكل الأرض لحومهم ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ يديه ﴿بِالْوَصِيدِ﴾ بفناء الكهف، وكانوا إذا انقلبوا انقلب وهو مثلهم فى النوم واليقظة ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ﴾ – بالتخفيف والتشديد[١] – ﴿مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ – بسكون العين وضمها – منعهم الله بالرعب من دخول أحدٍ عليهم ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كما فعلنا بهم ما ذكرنا ﴿بَعَثْنَاهُمْ﴾ أيقظناهم ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ عن حالهم ومدة لبثهم ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾[٢] لأنهم دخلوا الكهف عند طلوع الشمس وبعثوا عند غروبها، فظنوا أنه غروب يوم الدخول، ثم ﴿قَالُوا﴾ متوقفين فى ذلك ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾ – بسكون الراء وفتحها – بفضتكم ﴿هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ ياقل: إنها المسماة الآن طرسوس بفتح الراء ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ أى: أىّ أطعمة المدينة أحل[٣] ﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (*) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ﴾ يقتلوكم بالرجم ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ أى: إن عدتم فى ملتهم.

---

(١) قرأ عامة قراء المدينة (ولملّئت) بتشديد اللام، وقرأ عامة قراء العراق (ولملِئت) بالتخفيف [الطبرى ١٥/ ٢١٥، فتح القدير ٣/ ٢٧٥، القرطبى ١٠/ ٢٤٣، البحر ٦/ ١١٠، الرازى ٢١/ ١٠٢، التحرير ١٥/ ٢٨٣].

(٢) بناء على غالب ظنهم، لأن النائم لا يحصى مدة نومه، ولذلك احالوا العلم إلى الله تعالى. [البيضاوى ٢/ ٧، والكشاف ٢/ ٣٨٣، والبحر ٦/ ١١١].

(٣) قال عطاء وسعيد بن جبير: أحل الذبائح، وقال مجاهد: لا نبتع طعامًا فيه ظلم ولا غصب. [يُنظر: الوسيط ٣/ ١٤١، الطبرى ١٥/ ٢٢٣، فتح القدير ٣/ ٢٧٦، القرطبى ١٠/ ٢٤٤].

﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا﴾ أطلعنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ قومهم والمؤمنين[1] ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ أى: قومهم ﴿أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أى: البعث بطريق: أن القادر على إنامتهم المدة الطويلة ، وإبقائهم على حالهم بلا غداء، قادر على إحياء الموتى، ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ﴾ أى: لا شك و (إذ) معمول لأعثرنا ﴿يَتَنَازَعُونَ﴾ أى: المؤمنون والكفار ﴿بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أمر الفتية فى البناء حولهم[2] ﴿فَقَالُوا﴾ أى: الكفار ﴿ابْنُوا عَلَيْهِمْ﴾ أى: حولهم ﴿بُنْيَانًا﴾ يسترهم ﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ أمر الفتية، وهم المؤمنون ﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ حولهم ﴿مَسْجِدًا﴾ يصلى فيه، وفعل ذلك على باب الكهف.[3]

﴿سَيَقُولُونَ﴾ أى: المتنازعون فى الفتية فى زمن النبى ﷺ، أى: يقول: بعضهم: هم ﴿ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ﴾ أى: بعضهم ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ والقولان لنصارى نجران ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أى: ظنًا فى الغيبة عنهم، وهو راجع إلى القولين معًا، ونصبه على المفعول له، أى: لظنهم ذلك ﴿وَيَقُولُونَ﴾ أى: المؤمنون ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ الجملة من مبتدأ وخبر صفة (سبعة) بزيادة الواو، وقيل: تأكيدًا ودلالة على لصوق الصفة بالموصوف، ووصف الأوليْن بالرجم دون الثالث دليل على أنه مرضىّ وصحيح.

---

(١) وقد كان القوم الذين عثروا عليهم مؤمنين مثلهم، فكانت آيتهم آية تثبيت وتقوية إيمان [التحرير ١٥/ ١٨٧، الرازى ٢١/ ١٠٦].

(٢) قال عكرمة: تنازعوا فى البعث، فقال المسلمون: البعث للأجساد والأرواح، وقال قوم: للأروح دون الأجساد، فبعثهم الله تعالى وأراهم أن البعث للأجساد والأرواح. [يُنظر: البغوى ٣/ ١٥٦، الكشاف ٢/ ٣٨٤، روح المعانى ١٥/ ٢٣٤].

(٣) ذكر فى القصة أن الملك الصالح جعل على باب الكهف مسجدًا، وجعل عنده عيدًا عظيمًا، وأمر أن يُؤتى كل سنة. [يُنظر: الوسيط ٣/ ١٤١].

﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال ابن عباسٍ رضى الله عنهما: أنا من القليل وذكرهم سبعة[١]، ﴿فَلَا تُمَارِ﴾ تجادل ﴿فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾ بما أُنزل عليك ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ﴾ تطلب الفتيا ﴿فِيهِمْ مِنْهُمْ﴾ من أهل الكتاب اليهود ﴿أَحَدًا﴾.

وسأله أهل مكة عن خبر أهل الكهف، فقال: أخبركم به غدًا ولم يقل إن شاء الله فنزل[٢] ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ﴾ لأجل شىء ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ أى: فيما يستقبل من الزمان ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أى: إلا متلبسًا بمشيئة الله تعالى بأن تقول: إن شاء الله ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ التعليق بها، ويكون ذكرها بعد النسيان كذكرها مع القول، قال الحسن وغيره: ما دام فى المجلس.[٣] ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا﴾ من خبر أهل الكهف فى الدلالة على نبوتى ﴿رَشَدًا﴾ هداية، وقد فعل الله تعالى ذلك.

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ﴾ بالتنوين[٤] ﴿سِنِينَ﴾ عطف بيان لثلاثمائة، وهذه السنون الثلاث مائة عند أهل الكهف شمسية وتزيد القمرية عليها عند العرب تسع سنين، وقد ذُكرت فى قوله تعالى: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ أى: تسع سنين، فالثلاثمائة الشمسية ثلاثمائة وتسع سنين قمرية[٥] ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ ممن اختلفوا فيه، وهو

---

(١) يُنظر: الوسيط ٣/ ١٤٢– ١٤٣، الطبرى ١٥/ ٢٢٦، فتح القدير ٣/ ٢٨٠، أبو السعود ٥/ ٢١٦، التحرير ١٥/ ٢٩١.

(٢) يُنظر: البغوى ٣/ ١٥٧، الوسيط ٣/ ١٤٦، الطبرى ١٥/ ٢٢٨، القرطبى ١٠/ ٢٥٠، البيضاوى ٢/ ٨، الكشاف ٢/ ٣٨٦، روح المعانى ١٥/ ٢٤٧، أبو السعود ٥/ ٢١٧، الرازى ٢١/ ١٠٩، التحرير ١٥/ ٢٩٥.

(٣) يُنظر: البغوى ٣/ ١٥٧.

(٤) قرأ عامة قراء المدينة والبصرة وبعض الكوفيين (ثلاثِ مئةٍ سنين) بالتنوين بمعنى: ولبثوا فى كهفهم سنين ثلاث مائة، وقرأته عامة قراء أهل الكوفة (ثلاثَ مئةٍ سنين) بإضافة ثلاث مئة إلى سنين غير منون. [الطبرى ١٥/ ٢٣٢، فتح القدير ٣/ ٢٧٩، الكشاف ٢/ ٣٨٧].

(٥) تفسير الجلالين بهامش الفتوحات الإلهية ٣/ ٥ – ٢٠.

ما تقدم ذكره ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى: علمه ﴿أَبْصِرْ بِهِ﴾ أى: بالله، وهى صيغة تعجب ﴿وَأَسْمِعْ﴾ به كذلك، بمعنى: ما أبصره وما أسمعه، وهما على جهة المجاز، والمراد: أنه تعالى لا يغيب عن بصره وسمعه شىء ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ لأهل السماوات والأرض ناصر ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ لأنه غنى عن الشريك.

❖ **ذكر القصة من كتب التفسير:**

روى أن أهل الإنجيل عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم، حتى عبدوا الأصنام، وأكرهوا على عبادتها الناس، فشدد اكثر من الجميع فى ذلك (دقيانوس) الملك، فأراد فتية من أشراف قومه على الشرك، وتوعدهم بالقتل، فأبوا إلا الثبات على الدين[1]، فنزع ثيابهم وحليهم وتوعدهم.

ولكنه رحم شبابهم فأمهلهم حتى يرجعوا إلى رشدهم.

وانطلق (دقيانوس) إلى مدن أخرى ليأمرهم بعبادة الأصنام أو ليقتلوا.

أما الفتية[2] فإنهم انطلقوا إلى كهفٍ قريب من مدينتهم المسماة (أفسوس)[3] وهذا الجبل يسمى (بنجايوس) وأخذوا يعبدون الله فيه، حتى إذا هجم عليهم (دقيانوس)وقتلهم ماتوا طائعين عابدين وقد كانوا سبعة.

---

(١) يُنظر: روح المعانى ١٥/ ٢١٦ – ٢١٧، عن ابن إسحاق وابن أبى شيبة وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما.

(٢) نظر: روح المعانى ١٥/ ٢١٦، فلما رأى الفتية ذلك وكانوا عظماء مدينتهم.. وقيل: من خواص الملك.. وحين قال لهم الملك: ما منعكم أن تشهدوا الذبح لألهتنا؟ وخيّرهم بين القتل وعبادة الأوثان، فقالوا: إن لنا إلهًا ملأ السماوات والأرض عظمته وجبروته، ولن ندعو من دونه أحدًا، ولن نقر بما تدعونا إليه أبدًا، فاقض ما أنت قاض.. فنزع ما عليهم من الثياب الفاخرة.

(٣) نظر: روح المعانى ١٥/ ٢١٦ – ٢١٧، وفى رواية (طَرَسوس) وكذا القرطبى ١٠/ ٢٣٣، وكان ذلك بعد زمن عيسى عليه السلام.

فلما مروا فى الطريق إلى الكهف تبعهم راعٍ ومعه كلب، فجلسوا هناك على العبادة والتسبيح.

وكان أحدهم المسمى (تمليخا) هو الذى يبتاع لهم أرزاقهم، ويوصل لهم أخبار (دقيانوس) وهم مجدّ فى طلبهم وبقوا كذلك أيامًا حتى رجع (دقيانوس) إلى بلدتهم، وبحث عن عابدى الله يذبحهم، أو فليسجدوا للأصنام فسمع بذلك (تمليخا) وهو يشترى الطعام فى اختفاء فأخبرهم فبكوا.

ثم ضرب الله على آذانهم فناموا.

وتذكرهم (دقيانوس) فهدد آباءهم إن لم يُحضروهم، فدلوه عليهم فى الكهف، فتوجه إلى الكهف فسده عليهم ليموتوا، وانتهى الأمر على ذلك.

ثم إنه كان هناك رجلان مؤمنان فى حاشية الملك (دقيانوس) يكتمان إيمانهما، وهما (بيدروس) و (روناس) فكتبا قصة هؤلاء الفتية سرًا فى لوحين من حجر، وجعلاهما فى تابوت من نحاس، وجعلا التابوت فى البناية ليكون عبرة وتاريخًا فيما بعد.

ثم مضت قرون، ولم يبقَ لـ (دقيانوس) ذكر ولا أثر.

وملك البلاد ملك صالح[1] يقال له (بيدروس) وبقى ملكه ٢٨ سنة، وانقسم الناس فى أمر البعث فرقتين كافرة ومؤمنة، فحزن الملك حزنًا شديدًا وتضرع إلى الله تعالى أن يرى الناس آية حتى يعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها.

واتفق إذ ذلك أن راعيًا اسمه (أولياس) خطر له أن يهدم باب الكهف، ويبنى به حظيرة لغنمه، ولكن الله لم يمكنه من رؤيتهم.

---

(١) يقول سيد قطب:

ونفهم أن اهل المدينة اليوم مؤمنون، فهم شديدوا الحفاوة بالفتية المؤمنين بعد أن انكشف أمرهم بذهاب أحدهم لشراء الطعام، وعرف الناس أنه أحد الفتية الذين فروا بدينهم منذ عهدٍ بعيد. [الظلال ١٥/ ٢٢٦٤].

فلما فتح الكهف استيقظوا جميعًا فجلسوا مستبشرين، وقاموا للصلاة ثم قال بعضهم لبعض: كم لبثتم نيامًا؟ ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾.

فذهب (تمليخا) على عادته يشترى الطعام، ويتلطف فى السؤال متخفيًا حذرًا من (دقيانوس)، فلما خرج (تمليخا) من باب الكهف عجب من الحجارة التى حوله، وذهب إلى المدينة فرأى جميع معالمها متغيرة.

أما الخيام فإنها كخيامهم *** وأرى رجال الحى غير رجالها

وسمع اسم المسيح ينادى به فى كل مكان، فقال عجبًا: لمَ لمْ يذبح (دقيانوس) هؤلاء المؤمنين؟

ولما تحير قال: ربما كنت نائمًا، ولعل هذه ليست مدينتنا، فسأل رجلًا: ما اسم هذه المدينة؟ فقال: أفسوس. وأخيرًا تقدم إلى رجلٍ فأعطاه الورق ليشترى به طعامًا فدهش الرجل، فأخذ يقلبها ويعطيها إلى جيرانه، وهم يعجبون ويقولون: هذا كنز عثرت عليه، فإن هذه الدراهم عليها اسم (دقيانوس) وذلك منذ زمانٍ بعيد.

فسحبوه حتى دخلوا على رجلين يقومان بأحكام المدينة، فظن (تمليخا) أنهم أخذوه إلى (دقيانوس) فلما عرف أنه لم يؤتَ به إلى (دقيانوس) سرى عنه الغم وذهب البكاء، فسأله الحاكمان وهما (آريوس) و (طنطيوس): أين الكنز الذى وجدته يا فتى؟

وبعد أخذِ وردٍ ذكر لها خبر الفتية و (دقيانوس) وأن أمرهما كان أمس، ولكنه متحير فى أمره، وأنكم إن شئتم فها هو ذا الكهف، فاذهبوا معى فانظروه وفيه أصحابى، فقاموا معه حتى وصلوا إلى باب الكهف، وتقدمهم (تمليخا) فأخبرهم الخبر كله فعجبوا وعرفوا أنهم ناموا ثلاثمائة وتسع سنين وأنهم أوقظوا ليكونوا آيةً للناس.

وملخصها:

أنهم فتية هربوا من (دقيانوس) خوفًا على دينهم، فسد عليهم بالحجارة.

وقد كتبنا هذه القصة ليعرفها من بعدنا، فخر (آريوس) ومن معه سجدًا لله، وأرسلوا بريدًا إلى ملكهم الذى تضرع لله (بيدروس) أن هجل واحضر لترى آية الله فى أمر البعث، فهؤلاء الفتية ناموا ٣٠٩ سنوات فحمد الله وركب وركب معه أهل مدينته حتى أتوا مدينة أفسوس وكان يومًا مشهودًا.

ولما رأى الفتية (بيدروس) خرّ ساجدًا لله، ثا اعتنقهم وبكى وهم لا يزالون يسبحون الله تعالى، ثم قال الفتية له: نستودعك الله، ونعيذك من شر الإنس والجن، فرجعوا إلى مضاجعهم، وتوفى الله أنفسهم.

فأمر الملك أن يُجعل كل منهم فى تابوت من ذهب، فلما أمسى ونام رآهم فى المنام يقولون: اتركنا كما كنا فى الكهف على التراب حتى يبعثنا الله، فأمر الملك أن يكونوا فى تابوت من ساج فجعلوا فيه، ولم يقدر أحد بعد ذلك أن يدخل عليهم، وأمر الملك أن يتخذ على باب الكهف مسجدًا يصلى الناس فيه وجعل لهم عيدًا عظيمًا.

هذا ملخص القصة ذكرتها لك حتى يسهل عليك فهم الآيات.(١)

ثم عقّب القرطبى رحمه الله تعالى بعد ذكر القصة بقوله:

هذه الآية صريحة فى الفرار بالدين، وهجرة الأهل والبنين والقرابات والأصدقاء والأوطان والأموال وخوف الفتنة وما يلقاه الإنسان من المحنة.

وقد خرج النبى ﷺ فارًا بدينه وكذلك أصحابه رضى الله عنهم وجلس فى الغار.. وقد نص الله تعالى على ذلك فى سورة براءة.

وهجروا أوطانهم وتركوا أرضهم وديارهم وأهاليهم وأولادهم وقراباتهم وإخوانهم، رجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين.

---

(١) الجواهر ٩/ ١٢٥-١٢٦، ويُنظر: روح المعانى ١٥/ ٢١٦-٢١٧، تفسير أبى السعود ٥/ ٢٠٩، القرطبى ١٠/ ٢٣٣-٢٣٤، ابن كثير ٣/ ٧٤ وما بعدها.

فسكنى الجبال ودخول الغيران، والعزلة عن الخلق، والانفراد بالخالق، وجواز الفرار من الظالم، هى سنة الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء.

وقد فضل رسول الله ﷺ العزلة، وفضلها جماعة العلماء، لاسيما عند ظهور الفتن وفساد الناس، وقد نص الله تعالى عليها فى كتابه فقال: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾.(١)

❖ **مناسبة ذكر آيات القصة لما قبلها:**

يقول العلامة الشوكانى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾، (أم) هى المنقطعة المقدرة بـ (بل) والهمزة عند الجمهور، و بـ(بل) وحدها عند بعضهم، والتقدير: بل أحسبت، أو: بل حسبت، ومعناها: الانتقال من حديثٍ إلى حديثٍ آخر، لا لإبطال الأول والإضراب عنه.

والمعنى أن القوم لما تعجبوا من قصة أحاب الكهف وسألوا عنها الرسول صلى الله عليه وسلم على سبيل الامتحان، قال سبحانه: بل أظننت يا محمد أنهم كانوا عجبًا من آياتنا فقط؟

لا تحسب ذلك فإن آياتنا كلها عجب، فإن من كان قادرًا على جعل ما على الأرض زينةً لها للابتلاء ثم جعل ما عليها صعيدً جرزًا كأن لم تغن بالأمس، لا تستبعد قدرته وحفظه ورحمته بالنسبة إلى طائفةٍ مخصوصةٍ وإن كانت قصتهم خارقة للعادة فإن آيات الله سبحانه كذلك وفوق ذلك.(٢)

ويقول الرازى:

اعلم أن القوم تعجبوا من قصة أصحاب الكهف وسألوا عنها الرسول ﷺ على سبيل الامتحان فقال تعالى: أم حسبت انهم كانوا عجبًا من آياتنا فقط، فلا تحسبن ذلك، فإن آياتنا كلها عجب، فإن من كان قادرًا على تخليق السماوات والأرض، ثم

---

(١) القرطبى ١٥/ ٢٣٤.

(٢) يُنظر: فتح القدير ٣/ ٢٧١، الكشاف ٢/ ٣٨٠-٣٨١، البحر المحيط ٦/ ١٠٠-١٠١، روح المعانى ١٥/ ٢٠٨-٢٠٩، أبو السعود ٥/ ٢٠٥-٢٠٦.

يزين الأرض بأنواع المعادن والنبات والحيوان، ويجعلها بعد ذلك صعيدًا جرزًا خالية من الكل، كيف يستبعدون من قدرته وحفظه ورحمته حفظ طائفة مدة ثلاثمائة سنة وأكثر فى النوم، هذا الوجه فى تقرير النظم.(١)

ويقول ابن عاشور: وقد أشارت الآيات إلى قصة نفرٍ من صالحى الأمم السالفة ثبتوا على دين الحق فى وقت شيوع الكفر والباطل، فانزووا إلى الخلوة تجنبًا لمخالطة أهل الكفر، فآووا إلى كهفٍ استقروا فيه فرارًا من الفتنة فى دينهم، فأكرمهم الله تعالى بأن ألقى عليهم نومًا بقوا فيه مدة طويلة.

ثم أيقظهم فأراهم انقراض الذين كانوا يخافونهم على دينهم.

وبعد أن أيقنوا بذلك أعاد نومتهم الخارقة للعادة، فأبقاهم أحياء إلى أمدٍ يعلمه الله أو أماتهم وحفظ أجسادهم من البلى، كرامةً لهم.(٢)

ويقول سيد قطب:

ثم تجىء قصة أصحاب الكهف فتعرض نموذجًا للإيمان فى النفوس المؤمنة، كيف تطمئن به، وتؤثر على زينة الأرض ومتاعها، وتلجأ به إلى الكهف حين يعز عليها أن تعيش به مع الناس، وكيف يرعى الله هذه النفوس المؤمنة، ويقيها الفتنة، ويشملها بالرحمة.

هذا، والظاهر الجلى من هذه القصة أن تغيير المنكر هنا قد اقتصر على القلب وحده، دون اليد أو اللسان، ومع هذا فقد وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾.

---

(١) تفسير الرازى ٢١/ ٨٢-٨٣، ويُنظر: تفسير ابن كثير ٣/ ٧٢-٧٣ وعنده:

قال ابن عباسٍ رضى الله عنهما: يقول الله تعالى: الذى آتيتك من العلم والكتاب والسنة أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم.

وقال محمد بن إسحاق: ما أظهرت من حججى على العباد أعجب من شأن أصحاب الكهف والرقيم.

(٢) التحرير والتنوير ١٥/ ٢٦١.

خاتمـــة

الحمـد لله رب العـالمين، والصـلاة والسـلام علـى سـيدنا محمد خـاتم الأنبيـاء والمرسلين، ورضى الله تعالى عن الصحب الكرام والتابعين، ومن سلك طريقه إلى يوم الدين.

وبعد: فالقرآن الكريم دستور الحياة، ومنهج الشريعة، وقانون السعادة فى الدنيا والآخرة، قال منزله سبحانه وتعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

ثم كانت السنة النبوية الشريفة مبينة للقرآن ومكملة لمنهج الإسلام، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

وكما جاءت آيات من القرآن فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر، وردت أحادث فى هذا الشأن، منها:

حـديث ﴿الـدين النصـيحة لله ولرسـوله ولأئمـة المسـلمين وعـامتهم﴾ وحـديث ﴿النصح لكل مسلم﴾ وما المراد بالنصح إلى تغيير ما خالف المعروف.

وأحاديـث الحـب فـى الله تعـالى كثيـرة، ومنهـا ﴿مـن أحـب لله وأبغـض لله فقـد استكمل الإيمان﴾ وحديث ﴿أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه﴾ وحديث ﴿ورجلان تحابا فى الله﴾.. وإذا كـان المسلم لا يحـب المعاصـى والشرور لنفسـه فكذلك لكـى يستكمل إيمانه لا يحبها لغيره.

ومن ثم وجب على المسلم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر صغيره وكبيره مع الرفق ﴿إن الله يحب الرفق فى الأمر كله﴾.

وبهذا يسعد المجتمع، ويتعاون أفراده على البر والتقوى، وحسبى أنى بذلت جهدى وطاقتى، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

وأرجوا من الله تعالى القبول، وأن ينفع به ويفيد، إنه نعم المولى ونعم النصير.

مراجـــع البحـــث

١) إحياء علوم الدين، تصنيف الإمام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥هـ، ط دار مصر للطباعة.

٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لقاضى القضاة أبو السعود محمد بن محمد العمادى المتوفى سنة ٩٥١هـ، ط دار إحياء التراث العربى.

٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل تأليف القاضى ناصر الدين أبى سعيد عبد الله بن عمر البيضاوى المتوفى سنة٧٩١هـ،ط١،١٩٨٨م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤) تفسير البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بأبى حيان الأندلسى، ط ١٩٨٣م، دار الفكر.

٥) تفسير التحرير والتنوير، تأليف سماحة الأستاذ الغمام الشيخ الطاهر بن عاشور.

٦) تفسير الجلالين بهامش الفتوحات الإلهية.

٧) تفسير الفخر الرازى، المشتهر بالتفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، للإمام محمد الرازى فخر الدين بن العلامة ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الرى، ط٣، سنة ١٩٨٥م، دار الفكر، بيروت.

٨) تفسير القرآن العظيم لأبى الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤هـ، ط الحلبى.

٩) تفسير جامع البيان عن تأويل آى القرآن، تأليف أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هن ط ١٩٨٨م، دار الفكر، بيروت.

١٠)الجامع لأحكام القرآن لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، ط١، سنة ١٩٨٨م، دار الكتب العلمية، بيروت.

١١)الجواهر فى تفسير القرآن الكريم المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات، تأليف الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى، ط٤، ١٩٩١م، دار إحياء التراث العربى، بيروت.

١٢)الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للإمام جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ، ط١، ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٣)روح المعانى فى تفسير القرآن والسبع المثانى، للعلامة أبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسى البغدادى، المتوفى سنة ١٢٧٠هـ، ط ١٩٨٧م، دار الفكر، بيروت.
١٤)سنن أبى داوود.
١٥)سنن الترمذى.
١٦)صحيح البخارى. وصحيح مسلم.
١٧)فتح القدير الجامع بين فنى الدراية والرواية من علم التفسير تأليف محمد بن على الشوكانى المتوفى سنة ١٢٥٠هـ، ط٣، ١٩٧٣م، دار الفكر، بيروت.
١٨)الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، تأليف سليمان بن عمر العجيلى الشافعى الشهير بالجمل المتوفى سنة ١٢٠٤هـ، ط الحلبى.
١٩)فى ظلال القرآن، سيد قطب، ط١١، سنة ١٩٨٢م، دار الشروق.
٢٠)الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل، تأليف أبى القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى، المتوفى سنة ٥٨٣هـ، ط دار المعرفة بيروت.
٢١)لسان العرب. ومفردات غريب القرآن.
٢٢)معالم التنزيل للإمام أبى محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى الشافعى المتوفى سنة ٥١٦هـن إعداد وتحقيق خالد العك، مروان سوار، ط١، ١٩٨٦م، دار المعرفة، بيروت.
٢٣)الوسيط فى تفسير القرآن المجيد تأليف أبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى المتوفى سنة ٤٦٨هـ، ط١، ١٩٩٤م، دار الكتب العلمية،بيروت،تحقيق عادل عبد الموجود.